زَنْقَة الطَّلْيَان

بومدين بلكبير

زَنْقَة الطَّلْيَان

القائمة الطويلة لجائزة البوكر 2022

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب 2025
www.chihab.com
الهاتف : 07 67 15 023 / الفاكس : 55 75 13 023
ردمك : 978-9947-39-749-7
الإيداع القانوني : أفريل 2025

إلى
عادل معنصري
ولسعد عميرش

«عليكِ أن تعرفي شيئًا حولَ هذا الحيّ:
إنَّه بشعٌ، لكنَّ العيش فيه جميلٌ وممتعٌ».

ريجينا بورتر

«وأنت يا ألم/ تمعن في الأضلاع، في المِعصمَين/ اللذين
سيجمدان بعد موتنا/ ها هي جثَّتنا تزحف/ داخل الحيّ/ ولا
يعرف سبيلًا لطردها».

ماري كلير بانكار

I

دلال سعيْدي

1

أفضى بي شارع جوزيفين أو زنقة الطَّليان كما كانت تطلقُ عليه صاحبةُ البناية التي أقطن بها، إلى نهج فيليب الطَّويل والمنحدر والذي يمتد صعودًا إلى جامع أبي مروان ونزولًا إلى موقف غرفة التّجارة. لم أترك العِنان لنفسي الأمَّارة بسلك المنحدر. توقفت هُنيهةً بالقرب من أوعية النباتات والورود الموضوعة لتزيين جانب الطَّريق أو المعلَّقة على الجدران وأسفل نوافذ البيوت. كنت أتنفَّس بعمق تحت الظّلال الشَّحيحة وأنا أسند ظهري إلى جدار أحد البيوت وإذَّاك وقع بصري على جدارية عملاقة رُسمَ فيها وجهان متقابلان لامرأتين ملتحفتين، الأولى بالملاءة السَّوداء والعجار والثَّانية بالسفساري الأبيض النَّاصع. كنتُ سارحةً في تفاصيل ملامح المرأتين إلى درجة أنَّ كلَّ شيء آخر عداهما خرج عن نطاق بصري وكأنَّهما قديستان تمَّت استعارتهما من زمن جميل مضى ولن يعود.

ثم انتهى بي المسير إلى نهج فرعيّ، قصير وضيّق، أفضى بي بدوره إلى رحبة سيدي شريَّط الفسيحة. مررت حولها إلى أن دخلت شارعًا آخر قاصدةً محل العمَّة صليحة علَّني أصادف ابنها يعقوب هناك. فقبل ثلاث سنوات أقمت بنزل الهناء، الموجود في هذا الشَّارع متوسط الطول والذي يبتدئ انطلاقًا من حدود رحبة سيدي شريَّط وينتهي عند رصيف المدرسة الابتدائية «دوايسية عمارة» المقابلة لفندق الشيراتون والتي يطلق عليها سكان «لابلاص دارم» تسمية «جامع طومبور»؛ أينما توجد مطاعم شعبية ودكاكين بقالة وحظيرة

سيارات ومقهى في زاوية تقود مباشرة إلى زقاق يؤدي إلى مسجد صلاح الدين الأيوبي ومنه إلى أزقة أخرى. وبالضَّبط قبالة مركز التجنيد العسكري أينما تقطع نهجًا ضيّقًا له طريق مرصوفة بحجارة الغرانيت وعلى بعد خطوات تمرُّ بمحاذاة محافظة الشرطة السَّادسة ونزل الأندلس إذ يقودك هذا النَّهج إلى الجانب الخلفي لبنايات الأقواس المقابلة لساحة الكور.

كنت أخرج من النَّزل إلى محل صغير يبيع خبز الكسرة والمحاجب والحلويات التقليدية، يقع بين مقهى البركة العتيق ومحل آخر مغلق. حيث تقبع عمتي صليحة كما سمعت بعض الفتية ينادونها في أثناء تلبية طلبياتهم، وهي امرأة في الستين من العمر أو أكثر بقليل، كنت أراها دومًا بقندورة تقليدية وعند غيابها يعوّضها ابنها يعقوب وهو شاب لطيف يمتلك كل المقوّمات التي تجعل منه رجُلًا كاملًا، الأمر الذي دفعني إلى التردد باستمرار على المحل لاقتناء الكسرة أو المحجوبة، لكن في حقيقة الأمر كنت أتحيَّن فرصةَ أو مصادفةَ وجوده كي ألفتَ انتباهه إليَّ علَّني بذلك الحضور أحظى ببعض اهتمامه. فشاب بمثل مواصفاته جديرٌ بالمغامرة والاستمرار في المحاولة حتى تمسك الصنَّارة لكن لا مبالاته أرهقتني، وككل مرة كنت أخرج من محلّه بطعم الخيبة. كان ينتابني شعور ممتزج بالمرارة والمذلَّة لا يمكن وصف فداحة أثره على معنوياتي لكن ومع كل ذلك كنت أحاول أن أبقى واقفة ومستمرة كي لا أنهزم ولا أستسلم أمام خيبات الحياة المتكررة.

واصلت تقدُّمي وسط البيوت القديمة والمتاجر والمقاهي وطاولات بيع الفواكه والخضر وحشود الناس المتدفقين من كل الجهات. لما اقتربت، لمحت أبواب دكَّان العمَّة صليحة موصدة، كانت خيبة كبيرة لدرجة أنَّني لم أنتبه إلى مسار خطواتي إلى أن انتهى بي المطاف فجأة بجانب مقهى الصمّ والبكمّ على وقع نظرات رشيد العفريت التي تغتصب تفاصيل جسدي بفجاجة منقطعة النظير.

ما كان مني إلَّا أن أطلقت العِنان لساقيَّ حتى أتخلَّص من هذا المخبول، الذميم، صاحب النُّدبة الظَّاهرة أعلى حاجبه الأيمن على شكل حدوة حصان، كما لو أنَّه أُسْقِطَ عُنوة من مكان مرتفع بعض الشَّيء أو تمَّ رَمْيهُ بحجرٍ حاد، أو ضُربَ بأداةٍ صُلبةٍ عقابًا له على جُرم قد اقترفه. كان قصير القامة، أشعث اللحية، بارز الكرش، غليظ اليدين بأصابع قصيرة تنتهي بأظافر سوداء متسخة، ومقوَّس الرُّكبتين قليلًا، دومًا ما تجدُه مرتديًا قميصًا فضفاضًا متسخًا أو جلَّابية بالية.

وجدتُني أسيرُ على غير هدًى في النَّهج الضيّق خلف مركز التَّجنيد العسكري، كنت أشعر بوطأة المشي كأنَّني كنت أعبرُ في زقاق محشور وضيّق يكاد ينطبق عليَّ، وفوقي سحابة رمادية ثقيلة إلى درجة أنَّني فكرتُ أنها ستقضي عليَّ حتمًا لو حدث وسقطت فوق رأسي.

حاولت البحث عن درب آخر أكثر رحابةً كي أسترجعَ أنفاسي إلى أن وجدتُني هذه المرة أخرجُ إلى الشَّارع الموازي لمقر البلدية أينما اخترقت أشعة الشَّمس كتلة الغيوم من فوقي وراحت تتسلَّل إلى جسدي البارد وتنفذ إلى روحي المظلمة إلى أن تبخَّر قلقي وانخفض توتري حين لمحت شابة بجوار متجر صغير لبيع الكتب القديمة. لما اقتربت، ظهر لي كهل من الدَّاخل يرتّب الكتب على الرفوف بعناية واهتمام ظاهرين.

اجتزت مدخل المتجر بخطوات ثم ولَّيت القهقري، وبدون تردُّد دخلت. تظاهرت بالاهتمام وبدأت أسحب الكتاب تلو الآخر، تارة أقلب الصَّفحات وطورًا أراجع ذاك المجلد وأحيانًا أخرى أتصفَّح تلك الموسوعة المصورة أو أقرأ الغِلاف الخلفي لتلك الرّواية. وهكذا أمضيت بعض الوقت بأمان هنا إلى أن انتبهت إلى تلك الشَّابة تقف بالقرب مني وتسأل بتؤدة وأدب جمّ عن إمكانية تقديم أي مساعدة أو خدمة:

– هل هناك أيُّ شيء بعينه تبحثين عنه، أو إذا لم تكن عندك أيُّ فكرة فبإمكاني أن أدلَّكِ؟

لما لاحظت صمتي، أردفَت:

– هذه سلسلة لاروس جلبها لنا مهاجر من فرنسا البارحة فقط وهي جديدة تمامًا لم تُفتَح من قبل.

ما إن دخل رجلٌ مسنٌّ حتى لفت انتباه الشَّابة. بعد أن بادلته التحيَّة، لاحظتُ أنَّه أبدى اهتمامًا خاصًا ببعض المراجع، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ يستفسر منها ويسألها أسئلة متتالية فتحت المجال لنقاش بدا أنَّه سيطول. وإذَّاك انسحبتُ بهدوء من دون إثارة أدنى جلبة.

كنت أمشي وأنظر باستمرار إلى جانبيَّ علَّ رشيد العفريت يترصَّدُني على أحد جوانب الرَّصيف أو أنَّه ربَّما كامنٌ لي في زاوية ما. تسبقني خطواتي المستعجلة وأنفاسي المتقطّعة ونبضات قلبي المتتابعة. دومًا ما تتسبب لي رؤيته على حين غفلة في استعادة ذكريات صادمة، فقد كان يبدو لي شبيهًا بذلك المراقب العام في المدرسة الإكمالية والذي ما زال جرح ما أقدم عليه غائرًا إلى اليوم، على الرغم من انعدام أي رابط أو شبه بينهما، لحظتها تتسارع دقات قلبي وأُصاب بالرجفة والشعور باليأس، وتنمو داخلي رغبة عارمة في الاختباء أو الهرب أو ضربه حتَّى الموت.

ظننت أنَّ هذا الرَّصيف بلا نهاية، وما إن لمحت على يساري الكشك الصيني حتى دلفت يمينًا إلى جهة الأقواس الكولونيالية المسقوفة إلى أن قطعت الطَّريق ناحية ساحة الكور. تركت نفسي أمشي وسط الحشود المتزاحمة، هناك على جانبي رجالٌ مسنّون وبعض الكهول والمتقاعدين يرمون بظهورهم على الكراسي العمومية المظلَّلة بأغصان الأشجار المورقة والمخضرَّة على طول فصول السَّنة، كما أنَّ هناك أيضًا عجائز ونسوة ملتصقات بتلك المقاعد غير آبهات بالأطفال الذين يرافقوهن، وهم يتقافزون ويتهارشون ويمرحون ويطاردون الحمام في بطحة الكور.

واصلت المشي وسط السَّاحة مرورًا بالمقاهي المفتوحة على السَّماء، وبعض طاولات باعة السجائر والفول السوداني والألعاب التي تفترش الأرضية والسيارات الصَّغيرة المسيَّرة عن بعد بأجهزة قيادة

تجوب بالأطفال المكان جيئة وذهابًا وفي كل الاتجاهات، في حين أنهم داخلها وأصابع أيديهم متشبّثة بالباب أو بالمقود، معتقدين أنهم من يحركها.

لما وصلت إلى مقهى لوغلاسيي جلست إلى طاولة في ركنه الشمالي وما إن رآني النادل حتى انبسطت أسارير وجهه. كان عمار يعاملني معاملة تفضيلية على بقية رواد المقهى، فقد لاحظت ذلك من بداية ترددي على المكان وفي غالب الأحيان كان يرفض قبض ثمن الشاي وتعتريه حالة من الحرج كلما أبديت بعضًا من اعتراضي وأصررت على الدَّفع، وفي الحقيقة كان يروقني الأمر وكنت أحاول أن أتظاهر فقط حتى لا أجرح كرامتي. طلبت كوب شاي وقارورة مياه معدنية صغيرة.

امرأة خمسينية على رأسها فولار أرجواني شفاف، يظهر أنها وضعته كيفما اتفق، تمسك بكأس ممتلئة إلى النّصف بعصير الليمون، وبعض خصلات شعرها الظَّاهرة تتطاير مع أوراق الأشجار على وقع نسمات ريح خفيف وهي غارقة في الحديث مع شاب. من شعره الأملس المصبوغ وطريقته في الكلام وحركات جسده ظننته في بادئ الأمر فتاة في كامل تبرُّجها وأناقتها.

على الطاولة الأخرى التف فتيان وفتيات يتبادلون النكات والمزاح، تتعالى أصواتهم وضحكاتهم وصخبهم بين الحين والآخر إلى درجة أنَّها تقطع خيط التفكير الذي يطول بي وتشتّت رابط الصور المتتابعة من ذاكرتي، وسرعان ما أغرق مجدداً في تخيلاتي منشغلة تمامًا عن ضجيجهم وجلبتهم إلى أن يخرجوني مرَّة أخرى من عالمي حيث تتلاشى تلك الأفكار والمشاهد من الذَّاكرة وتصبح باهتةً يطغى عليها نور ساطع وحاجب، حينذاك تستحيل غير واضحة وغير مرئيةٍ كأنَّها طيفٌ عابرٌ، مرَّ بالذاكرة وسرعان ما مضى من دون رجعةٍ.

2

كانت الشَّقة التي أقيم بها في وسط المدينة العتيقة لابلاص دارم، على بعد أمتار قليلة من شارع الثَّورة، ضيّقة بعض الشيء، تقع بالطابق الأوَّل في بناية عتيقة ومتهالكة، قاب قوسين أو أدنى من انهيار بعض أجزائها. فبعد خمسة أسابيع من الإجازة الاضطرارية قضيت أكثر من نصفها في نزل متواضع، انتهى بي المطاف في زنقة الطَّليان، المتفرّعة من نهج فيليب، وكان كراءُ هذه الشقة خطوةً كبيرةً بالنسبة إليَّ بسبب مبلغ الإيجار المتواضع مقارنة بالأحياء القريبة، فقد سبق في تلك الفترة أن ذرعتها كلَّها تقريبا بحثًا عن شقة تناسبني، ابتداءً من شارع الأمير عبد القادر وإلى غاية لاكولون وليليزا، لكن من دون جدوى. أما أحياء كالماجستيك، والبوسيجور، وميناديا، وسانكلو، وواد القبَّة، فلم يخطر ببالي حتى مجرد التفكير في السؤال عن ثمن كراء الشقق هناك.

معمار البناية عريق، الأبواب الخشبية تحفة تراثية، والأقواس والتصاميم التي تعود للعهد العثماني ومع كلّ ذلك فهي متهالكة ويعشعش في شقوقها البقُّ والفئران والناموس والحشرات. وفي الشتاء تضيق أنفاسي من رطوبة جدران الحجرة التي لا تطل عليها الشَّمس، في حين هناك غرفة أخرى فيها نافذة كبيرة تطلُّ على الشارع وبالضبط على مدخل البناية أينما لا تتوقف حركة الأطفال والجيران وتصل من خلالها أشعة الشمس، وأصوات وصراخ المارين والواقفين عند مدخل الزنقة، أو أولئك الجالسين على غرانيت الممر

الضيق والمقوَّس ما بين البنايات والبيوت مقرفصين جماعات أو فرادى.

في بداية الأمر لم أشعر بأدنى انسجام أو تقارب عاطفي مع المكان ككل أو مع الشَّقة التي استأجرتها، لكنني مع مرور الوقت بدأت أعتاد الأجواء تدريجيًّا، وفي فترات شعرت بأنها تناسب بشكل كبير حالتي الاجتماعية وظروفي المادية.

كان المطبخ هو آخر قطعة انسجمت معها. لم يكن مقبولًا أو نظيفًا أو مبيَّضًا بإتقان، حتى زليج أرضيته غير متناسق، والرُّسوم والأشكال المطبوعة أو المنقوشة عليه، نصفها ممحوٌّ والنصف الآخر ملطخ ببقع الدهن وبقايا الإسمنت المترسب من زمن طويل. كان هناك موقد مصفر وقد بقعه الصدأ من جهات عدَّة، وعلى الرَّغم من ذلك فهو ما زال صالحًا للاستعمال ومكنسة وإسفنجة متسخة. بالإضافة إلى بعض الآنية؛ إبريق بلا غطاء وصحنان وكأس مفرومة وقارورة فارغة وشوكة وملعقة صغيرة وسكين مقبضه مكسور وفتاحة معلَّبات ومقلاة وطنجرة وقدور مصنوعة من الألمنيوم، متقادمة ومتهرئة وقد كساها السواد، وتراكمت عليها الدُّهون المحروقة من طول الاستعمال.

أما الجدران فقد وجدت عليها بعض الصور والبوسترات المقصوصة من الصحف والمجلات القديمة، تركتها كما هي من دون زيادة أو نقصان. كان هناك كرسي مترنح وطاولة صغيرة ومدورة من الخشب الأحمر. أما السلَّم الحلزوني المدعَّم بالخشب والإسمنت، فيبدو قديمًا جدًّا، من أشعة النور المتدفقة من ثقوب خشبه العتيق ومن الصرير المنبعث منه كلّما صعد أو نزل قاطن درجاته، وكان الأمر أشبه بما تحدثه سيَّارة تالفة الفرامل أو كالصرير الذي تثيره الأبواب الحديدية الصدئة عندما تكون غير مشحَّمة بالزيوت.

هناك باب مفتوح على بعد درجات من باب الشقَّة التي أقيم فيها، أسفله عتبة صغيرة. باب شقتي يفضي إلى فناءٍ ضيّقٍ جدًّا،

تَمَّ استغلاله لتكديس الأثاث القديم والأغراض غير الصالحة. وهناك حمَّامٌ يتدلى من على مدخله ستار مُزيَّن بخطوط زرقاء وبيضاء متوازية عموديًّا.

الأيَّام الأولى التي أقمت فيها بهذه البناية كانت جحيمًا لا يطاق، فقد كنت متذمّرة باستمرار من العيش في شقَّة بهذا القدر من البؤس والإهمال، كما كنت أشعر بشكل دائم تقريبًا باختناق واغتمام كبيرين كأنَّني حُشرت في مكان منبوذ وملعون خصوصًا أنَّ بعض الجدران كانت رطبة جدًّا وتنبعث منها رائحة عفنة ونتنة إلى حدٍّ أفقدني القدرة على التَّحمل. ممكن مأتى الأمر يُعْزى لعدم وصول أشعة الشَّمس إليها، فغالبًا ما كانت مظلمة أو أقل إضاءة.

في الحمام هناك تسربات طفيفة لكنَّها تسببت مع مرور الوقت في تشكُّل بركة صغيرة من الماء الآسن، خلفت رائحة لا تطاق، كأنَّ هناك حيوانًا نافقًا بالمكان.

3

لطالما كان العمل الذي أقوم به كمساعدة إدارية بمكتب التوثيق، في الماجستيك، مصدرًا لسعادتي المؤقتة لما يمنحه لي من شعور بتحقيق الذات، وإن كان هذا الشعور اللَّذيذ، نوعًا ما، غالبًا ما يتحوَّل إلى مزاج سيئ كُلَّما تكدرت الأجواء في مناخ العمل. فعلى الرَّغم من أنَّني كنت آخر من يدخل المكتب، كان الالتحاق بالعمل في وقت متأخر عادة متأصّلة فيَّ، لم أقوَ على الفكاك منها. لا أرى إطلاقًا أن التحاقي بمكتبي عند السابعة والنصف صباحًا أو حتَّى بعدها بساعة أو ساعتين أو أكثر قليلًا أمر مستساغ وقابل للتحقيق لأنَّني في تلك الأوقات بالذات أكون أتقلَّب في السرير وأنا مغمضة العينين. أستيقظ غالبًا عند التاسعة والنصف أو العاشرة صباحًا بتثاقل شاعرة بوخز في جسدي.

لكن طيلة الوقت الذي أقضية بالعمل، كنت أشتعل حماسًا، وكانت هذه الدافعية تمنحني حيوية وتحفيزًا على القيام بواجباتي والتزاماتي المهنية على أكمل وجهٍ ممكنٍ مقارنة بزملائي المتبرّمين والمتأفّفين دومًا، والشكائين والبكائين فيً غالب الأوقات. مأتى ذلك حرصي على إتمام ما يُطلب منّي والاهتمام بكل التفاصيل الصغيرة والدَّقيقة المرتبطة به. كنت شديدة الحرص على عدم إغضاب رب عملي الأستاذ جمال حيَّاهم وأجتهد في ألا أترك أيَّ مجال للتقاعس أو أدنى هامش للخطأ كي لا يخرج أيُّ شيء عن دائرة السيطرة

والتَّحكم. وكان الأستاذ جمال حيَّاهم، والحقُّ يقال، كريمًا وعطوفًا وحنونًا، يغدق عليَّ بين فترة وأخرى بالعطايا والهبات.

وكما كنت أحرص على تأدية عملي بإتقان كامل، فإنَّني علاوة على ذلك كنت أقوم بأعمال ثانوية إرضاءً لحاجات خاصة للأستاذ جمال حيَّاهم. أعرف أنَّني بذلك كنت أخرق قاعدة جوهرية سبق وفرضتها على نفسي في تعاملاتي وعلاقاتي، متعلقة بكبار السنّ كأمر لا نقاش فيه. طبعًا، كنت أنفر منهم ولا أطيقهم وكان هو الاستثناء الوحيد والمصدر الثَّابت للدخل، لا يبخل عليَّ بالمكافآت ويغدق عليَّ بالأموال، فهذا الرَّجل يجعلني سعيدة ويخفِّف عني تحمُّل أعباء الحياة، ما يجعلني أتبوَّل على الكثير من القواعد التي وضعتها وأتركها تتفسخ في البول المالح والعطن عن طيب خاطر ومن دون تأنيب ضمير أو إحساس بالذنب. فتارة أخمد نيرانه المشتعلة في بداياتها قبل أن تأتي على الأخضر واليابس، وطورًا أطفئ بعضًا من حرائقه التي أكلت من سني عمره.

وغالبًا ما كانت الأريكة الوثيرة التي تفصلها عن مكتبه طاولة خشبية قصيرة، فوقها مزهرية للزينة، يحيط بها كرسيان مغلفان بجلد السكاي بني اللون، مسرحًا لكلّ تلك الطُّقوس. كان الأثاث فخمًا وكان المكتب يحمل لمسات الأستاذ جمال حيَّاهم. مجموعة من المنحوتات على الخشب والبرونز لامرأة زنجية تحمل جرَّة على رأسها وامرأتين متقابلتين لا تظهر تفاصيل ملامحهما كأنَّهما تؤديان حركة ما، الأولى نحتت على الخشب الأسود والأخرى على الخشب بني اللَّون، وزرافة بنَّية اللَّون على جلدها بقع سوداء. طفل برونزي يتبوَّل. رأس رجل فينيقي. سبق وأن مررت كف يدي بهدوء على سطح تلك التُّحف، متحسسة تفاصيلها وانحناءاتها. وثلاث لوحات زيتية، الأولى على يمينه لمنظر الفنار والبحر والجبل في راس الحمرا وثانية على شماله تجمع بين مباني المدينة العتيقة لابلاص دارم وفندق الشيراتون الذي يطل عليها من علٍ، أمَّا اللَّوحة الثالثة خلف

الكرسي الذي يجلس عليه مباشرة من الأعلى، فتظهره حينما كان شابًا. وهناك خزانة خشبية أبوابها من الزجاج رصفت على رفوفها الكتب والمجلَّدات وعلب الملفات.

لم أكن أظهر أدنى رابط بيننا وكنت أتفادى البقاء طويلًا بمكتبه كي لا تفتح أبواب الشكّ في وجهي على مصراعيها. وفي سبيل ذلك غالبًا ما كنت أُفضّل فترة نهاية الدَّوام ولا أغامر بدخول مكتبه إلَّا بعد التَّأكد التَّام من مغادرة سُعاد وبقيَّة الموظفين، غير أن شوقه أحيانًا واستعجاله غير المبرَّر يفرضان عليَّ قضاء بعض الوقت في مكتبه عند منتصف النَّهار وبالضَّبط بعد مُضيّ خمس دقائق على ابتداء فترة راحة الغداء.

في المقابل كان لا يأبه بأي احتراز قد أبديه تبصرًا مني بالعواقب وهربًا من النوائب التي قد تصب عليَّ وحدي، وكان هذا ديدنه دومًا. فأن يُكتشف أمرنا وينتهي الخبر إلى زوجته وأبنائه، يعني أن أبواب الجحيم فتحت كُلُّها في وجهي أنا، بمعزل عنه، هو لن يمسَّه حيال ذلك أيُّ أذًى. ما يهمُّه أن ينعم بإشباع نهمه أو هكذا خُيّل إليَّ في المرات المتباعدة حينما كان يأخذني وسط النهار على حين غفلة وبعنوة إلى الأريكة الوثيرة، وبعد أن نفرغ، أعود أنا إلى مواصلة عملي بمكتبي وأحاول التَّظاهر بأن شيئًا لم يحدث ويعود هو لاحقًا إلى تكرار عادته تلك متناسيًا كل مخاوفي وهواجسي السَّابقة. في الحقيقة جربت أكثر من مرة اعتياد الأمر ببالٍ مطمئن وضمير مرتاح لكني لم أقوَ حتَّى على استيعابه خوفًا من اقتحام أحد الموظفين خلوتنا تلك على حين غفلة.

4

أوَّل شخص تقع عليه عيناي في تلك الصَّبيحة، قبل أن أصل كافي دالجي، هو رشيد العفريت، تفوح منه رائحة جرذ المجاري. فقد كان جالسًا عند رأس الشَّارع تقريبًا إلى أوَّل طاولة بجانب جامع الباي، كأنه كان ينتظرني. لم ينتبه لقدومي، لذلك غيرت اتجاه مسيري بمئة وثمانين درجة وعدت أدراجي منعطفة إلى أن استدرت تمامًا إلى الخلف.

لم أجد ما أفعل حيال الأمر سوى أن أقصد طاولة نجاة، في العادة عندما تقترب ميزانيتي من النفاد وأتحوَّل إلى شبه مفلسة، تجدني برفقة نجاة في ناصية الشارع مسندة ظهري إلى الحائط حتى لا تفوتني شاردة ولا واردة، أراقب حركة النَّاس العابرين وأنا قابضة على كوب من القهوة أو كأس من الشاي الدافئ، وفي يدي الأخرى قرطاس فول سوداني مملَّح، لا أحب الفول السوداني المقشَّر. أرتشف من الكوب بتمهُّل، وبين الرشفة والأخرى أقضم حبة أو حبتي فول سوداني.

غالبًا ما كنت أبقى بجوار نجاة ما يزيد على عشرين دقيقة، أستمتع بحكاياتها وبنبرتها الرّجالية وبرؤية الصُّور والفيديوهات المحمَّلة على موبايلها، وهي تريني إياها مصحوبة بتعليقاتها الفاجرة وضحكاتها المتقطعة. ومن حين لآخر تستأذنني للذهاب إلى المقهى لقضاء حاجتها أو لجلب بعض الأغراض التي نفدت من الطَّاولة. كما اكتشفت لاحقًا أن نجاة تخفي بعض الأقراص الطبية التي يمنع بيعها واستهلاكها بدون وصفة طبيب مختص، وسبق وسجنت لَمَّا ضُبطَت متورّطة في بيع تلك المواد المحظورة، لكنَّه سرعان ما أُفرِج عنها.

ورغم ذلك، لم تثنها المأساة التي حدثت خلال توقيفها ولا معاناة السجن عن التَّوقف عن القيام بالأمر مجددًا.

كانت نجاة، أو بالأحرى ناجي الرَّجلة كما يطلق عليها سكان المدينة العتيقة، والتي لا يجرؤ أيُّ أحد على مناداتها «نجاة». تسند ظهرها إلى جدار بين مطعم الجمال ومحلّ بقالة، وطاولة علب السَّجائر والحلويات والفول السوداني غير بعيدة عنها، من لم يسبق أن عرفها، يعتقد أنها رجل، ملامحها رجالية ودومًا ما ترتدي قميصًا فضفاضًا بعض الشيء حتَّى تخفي صدرها كآخر علامة بقيت تدلُّ على أنوثتها المسروقة. كانت ترتدي دومًا ملابس الرّجال، وقصة شعرها ذكورية، ونبرة صوتها خشنة مثلهم.

تجلس نجاة بجوار الرَّصيف، يوجد على طاولتها ترمس قهوة منقط بدوائر برتقالية ورمادية اللون، وصينية من السندويتشات الصَّغيرة، وثلاث أو أربع علب سجائر موزعة كيفما اتفق، وقداحة ممسوكة من أسفلها بشريط قماشي طويل ينتهي مربوطًا عند إحدى أرجل الطَّاولة.

لما انتبهت لوجودي، رفعت رأسها وأومأت لي بإيماءة خفيفة لكنها لم تنبس بكلمة.

سألتها:

– هل بقي عندك قهوة، أرغب في فنجان قهوة وسندويتش بيض.

أجابتني بنبرة محايدة:

– لا مانع، لحظة فقط لأغسل الفناجين وأقشر لك البيضة.

أجلس قبالتها، أرتشف القهوة بيد وأقضم من السندويتش الذي بيدي الأخرى وأتطلَّع في الرائحين والغادين. ثم أحاول أن أطرق معها موضوع المداهمة كي أجرَّها لرواية تفاصيلها التي تحفظها عن ظهر قلب:

– منذ حملة المداهمة الأخيرة، المدينة العتيقة أصبحت أكثر سكينة وأمانًا من ذي قبل.

تلتزم نجاة الصمت، إلَّا أنَّ ذلك لم يدم طويلًا. حتى تبدأ في التحدث بابتسامة مصطنعة كاشفة عن الفراغ الكبير بين سنيها الأماميتين:

– لا أرغب في الحديث عن الأمر.

إلَّا أنها تهزُّ رأسها ثم تتابع:

– صحيح، فبعد مداهمة عدَّة أوكار في المدينة العتيقة واقتحام بيوت مشكوك في تورُّط أصحابها في جرائم وقضايا، تغيَّر الوضع كثيرًا عن ذي قبل.

أدير أصابعي على حواف فنجان القهوة ثم أحدق في عيني نجاة وأخذ رشفة من قهوتي ثـمَّ أتابع معها الخوض في ذات الموضوع:

– كيف استتبَّ الأمر هكذا بسهولة؟

تطرق وكأنَّها تفكر في شيء ما ثم تهزُّ رأسها مرَّة أخرى محدّقة في الفراغ الذي يعلو الطاولة وتقول:

– كانت تلك المداهمة مختلفة تمامًا عمَّا عهدناه.

ثم تستأنف الحديث قائلة:

– شهدت لابلاص دارم حملة من الاعتقالات غير مسبوقة لأبناء الحي المتورطين ولبعض الدخلاء الأفارقة المتاجرين بالهروين والممنوعات وقد كان هناك قتلى من الطرفين.

أضيّق عينيَّ وأنا أنظر إليها وكأنني انتبهت إلى شيء ما. آخذ رشفة من قهوتي ثم أسألها:

– سمعت بأنَّ هناك ضحايا لكن لا أعرف عددهم بالضَّبط ومن يكونون.

تسود فترة صمت.

أنتبه إلى السندويتش بين أصابعي، بقي له قضمة واحدة وينتهي كلُّه داخل بطني.

أزمُّ شفتيَّ وأتظاهر أمامها بالحفاظ على مسحة متألمة، فيما تصمت هي مفكرة لبرهة، ينقبض وجهها وتنظر إلى أعلى كأنها تستحضر الحكاية من ذاكرتها ثم تردف قائلة:

– حقيقة، قد أودت هذه المداهمة بحياة المراهق زيزو دبوش الذي يقطن غير بعيد عن دار القاضي لأنه قاوم رجال الأمن والدرك وحاول الهرب من فوق سطوح المنازل والبيوت، كما شهدت مقتل شرطي إثر تلقيه ضربة مباغتة في الرأس، سمعت أنَّه لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أيَّام قليلة من مكوثه في العناية المركَّزة بمستشفى نوفال. من المرجَّح حسب ما تلوكه الألسن هنا، أن رؤوف سكتة ابن علجية المدَّاحة هو من رمى عليه بابًا من أعلى البناية.

حينما تتوقف نجاة لتأخذ نفسًا عميقًا، حيث ينتهي كلامها عند تلك النقطة. أطرق مفكرة حيال ما أخبرتني به ثم أعيد الفنجان إلى الطاولة قبل أن أودَّعها وأغادر.

ذات مرة تبادلت أطراف حديث مطوَّل مع علجية المدَّاحة، تطرقنا فيه لكل الموضوعات والأسرار، والنَّمائم، لا أتذكَّر بالضَّبط متى كان ذلك، ربَّما في جوان الماضي. إذ كنت ذات مساء خارجة للتبضُّع والتقيتها مصادفة عند مدخل زنقة الطَّليان، أو عند شارع الجمارك إن لم تخني الذَّاكرة. كنت بمفردي يومها، وكذلك هي، وقفنا على الرَّصيف حيث تحدَّثنا طويلًا، كان لديها الكثير لتقوله ذلك اليوم وكنت مصغية لها ومنتبهة إلى كل كلمة كانت تلفظها.

في البداية كان حديثنا عاديًّا ثم دار بيننا حديث عن نجاة. لا أدري لماذا تحدَّثت لي بمثل كلّ تلك الأشياء الشخصية عن نجاة، على الرغم من أنَّني لم أعتد الحديث معها من قبل مطولًا ولا تربطني بها علاقة وثيقة، بل حتى لست متأكدة إن كانت تعرف اسمي. كانت علجية امرأة سمراء، طويلة، وجلُّ سكان لابلاص دارم يعرفونها. يمقتها الجيران في زنقة الطَّليان ومع ذلك فهي لا تتورع عن الثرثرة مع الجميع. كانت دومًا منشغلة بتتبع أسرار الناس وخفايا البيوت لأنَّها

غالبًا ما تقضي جلَّ ساعات النَّهار في التَّسكع بين الدَّكاكين والأزقة والبنايات، وعندما تعود إلى بيتها كنت ألاحظها تقضي السَّاعات وهي على النَّافذة أو الشُّرفة تراقب كل حركة وسكنة في البيوت القريبة والمجاورة وتمشّط الشارع بعينيها دون كلل أو ملل وغالبًا ما كنت أسمعها تعنّف الصغار جراء خصوماتهم وعراكهم مع أبنائها. إن صياحها وصراخها والبذاءات التي تلفظها من فمها ما زالت ترنُّ في أذنيَّ إلى هذه اللحظة التي أراها وهي تقترب مني.

من بين الذي ما زلت أحتفظ به في ذاكرتي ممَّا حدَّثتني عنه، أن نجاة كانت تقطن في نهج ضيّق يمتد طولًا على طريق متصاعدة، خلف ليياپي أينما يدرس طلبة الجامعة اللَّيلية، غير بعيد عن بناية الماخور الموصدة الأبواب. بعض العائلات التي بقيت من سكان هذا النَّهج المنسي، دوَّنت على جدران بيوتها عبارة «بيت عائلي»، حيث توجد مجموعة من البيوت المتهالكة تركها أصحابها نهبًا للزَّمن وبقايا الذّكريات، أمَّا المحلَّات الصَّغيرة في الأزقَّة القريبة والتي تمتلكها العائلات، فمنها ما تحوّل نشاطه ومنها ما أغلق أبوابه.

الحياة هنا تنهش ما تبقى من آدمية الناس، والنسيان سيف مسلط على رقاب القاطنين، كما أخبرتني أن ذلك حدث بسبب مغادرة الكثير من العائلات العريقة المكان؛ فهناك منهم من غادر النَّهج أو المدينة أو البلد ككل بعد أن هاجروا إلى فرنسا ومنها ربما إلى دول أخرى. وكذلك موت العديد من كبار السن الذين كانوا يحفظون في صدورهم ذاكرة المكان وبهجته، وفق وصف علجية المدّاحة.

كما عرفت منها أنّ عائلة نجاة كانت من أوائل العائلات التي قطنت هذا النّهج، قادمة من مدينة الونزة التابعة لولاية تبسة، البعيدة عن عنّابة.

5

في أثناء نزولي الدّرج، لمحت جلال ينزل قبلي، بدأت أتمهّل قليلا للتطلّع إليه من الخلف، كنت أدقّق في تفاصيل كتفه، يعتريني قليل من الاضطراب. توقفت هنيهة بعد بقاء خمسة أدراج من تلك السلالم البالية، وبين الجدران المقشرة الطّلاء، فتحت حقيبة يدي، أخرجت منها المرآة الصغيرة، ثم تأمّلت وجهي، فوجدت أنفي الذي ورثته عن والدي أكبر بعض الشيء ممّا يجب، اكتفيت بتمرير قلم الكحل الأسود وأحمر الشفاه. عندما خرجت لمحته يسير بخطوات واسعة، تملؤه الحيوية والثّقة بالنّفس، سريعًا ومهيبًا في ذات الوقت.

لما اتجهت نحوه، لم أكن أعرف ما الذي سأفعله أو أقوله! بدأت أحثّ الخطى إلى أن لحقت به. كان يعتمر بيريَّة بنيّة اللّون، دُفعت للخلف وتغطي نصف جبهته البارزة بعض الشيء. عيناه كبيرتان ومشرقتان، انتبهت كيف كان يحدّق للأشياء من حوله. شخصيته تأسر كل من يعرفه أو يدنو منه، على الرّغم من المسحة السّاخرة حول شفتيه. ملامح وجه تشي بأنّ عقله قلق ومشغول على الدّوام، كأنّه يحمل العالم بأكمله فوق كاهله. ورغم كل ذلك، كان يستقبل الحياة بوجه ضاحك، متهكمًا وناقدًا بطرفه المعهود.

نزلنا معًا المنحدر الطويل في نهج فيليب، إلى أن خرجنا إلى موقف غرفة التجارة ثم انعطفنا يمينا إلى أن دخلنا في طريق الأقواس المسقوفة، وبعد تجاوز مقر البلدية، استدار ناحيتي وكأنّه قرأ ما يدور بخلدي ثمّ دعاني على فنجان قهوة في مقهى افتتح حديثًا.

في البداية دار بيننا حديث عادي، مثل ما يتحدّث عنه أيّ شخص يقابل جاره صدفة، وعند مضيّ نصف ساعة من جلوسنا، اقترح أن نذهب إلى مكان يمكنه أن يتناول فيه شرابًا وهناك أخذ الحديث منحى شخصيا وأكثر عمقًا. تحدثنا عن الكثير من الأمور التي نودّ أو لا نودّ الخوض في غمارها. بصراحة هي المرّة الأولى التي أدخل فيها مكانًا يقدم مشروبات كحولية. لذلك وجدتني قبل الدخول ألتفت يمنة ويسرة جراء التردد الذي اعتراني بغتة عند باب المدخل. فقد يتصادف وأن يكون أحد من العابرين من معارفي.

يحضر له النّادل قارورة نبيذ أحمر، فيطلب سلطة وقطعة لحم سمك أبيض وهو يشير إليّ بأن أتطلّع في قائمة الطعام.

أطرق لبرهة وأتظاهر بأنّني أتطلّع في قائمة الطعام. لاحظت أنّه انتبه إلى توتري وارتباكي، لذلك بادرني بتغيير نبرة صوته:

– كوني على راحتك، لا شيء يستدعي التوتر.

كان صوته منخفضًا. وتلك الابتسامة المرسومة على وجهه، تخفي وراءها اهتمامه بي، فأنا على الأقل أميِّزُ بين الابتسامة الصادقة النابعة من المشاعر، والابتسامة الصفراء المصطنعة الزائفة. ومع شعوري بصدق اهتمامه أومأت له برأسي، وهززت كتفيّ قليلا، ثم قلت:

– لا أشرب النبيذ.

لَـمْ يَحِرْ جوابًا. راح يحدق فيّ وهو يقوم برفع حاجبيه بمعدل متزايد، بشكل وكأنه يراني لأوّل مرة.

بإصبعي الكبير حككت جبهتي ثم مسحت في زاوية عيني وأضفت:

– ليست مسألة حلال أو حرام.

يميل برأسه قليلا، دون أن يكف تحديقه بي:

– ما المسألة إذًا؟

بوجه عابس رحت أتطلّع في الناس من حولي وأنا أتابع من زاوية عينيّ امرأة تمرّ بين الطاولات لتنضمّ لصديقها، بدت لي في

أوائل عشرينيّات عمرها، كانت مثيرة للاهتمام. وغير بعيد عنهما نحو خمسة رواد يتحدثون بصوت صاخب، يوزّع النّادل قوارير البيرة وكؤوس النّبيذ بحيوية وابتسامة لا تغادر محياه. ثم جاوبته:

– ولكن لديّ سبب يجعلني لا أشرب. زوجي كان سكيرًا مقرفًا. أليس هذا سببًا كافيًا؟

يسحب سيجارة، ويضعها بين شفتيه ثم يشعلها بقداحته وبعدها يرفع كأسه ويرد:

– هذا هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن يشربه المرء، وإلا يعتبر لم يشرب أيّ شيء في حياته.

لم أعلق بشيء، عدا أني كنت بين الحين والآخر أتطلّع إليه بملامح لا تدّل على الموافقة، ولا على الاعتراض.

يقول مبتسما:

– لماذا لا تجرّبين شرب كأس معي. إنَّه ليس سيئًا.

ثم يشير إلى النَّادل بأن يجلب كأسًا أخرى.

ويردف:

– حتى زوجتي تراني كذلك، لكنها تقبلتني كما أنا.

بعد لحظة من الخوف والارتياب تجرّأت وسألته:

– لم يسبق وأن حدثتني عن زوجتك.

يأخذ رشفة من كأس النبيذ ويتابع الحديث:

– رضيَت العيش في ظلي وتحملت نزقي وتقلباتي بصبر وطاعة. كانت زوجة مُحـبّة ذات روح باسلة.

أنظر إليه كما لو كنت أتظاهر بإبداء الكثير من الاهتمام له. وأقوم بدوري برشف بعض الرَّشفات من كأسي وتعديل جلستي بوضع ساق فوق ساق مثلما كان يجلس هو بالضبط، ثم أفصح له:

– أنا كذلك فعلت ما بوسعي مع زوجي السابق عبد العزيز سالمي كي أهنأ بحياة ممتعة ودافئة. كنت أهتم بكل شيء، أحسن

الطهي وأعتني بالتنظيف عناية ممتازة، كما كنت أحاول أن أكون مبهجة على الدوام.

يستطرد، بعد أن تبدَّل تعبير وجهه، فقطب بين حاجبيه في تقطيب مربك:

– لقد كانت رجاء قايدي تكبرني بثماني سنوات. تزوَّجتها عندما كنت في الثَّامنة عشرة من العمر، عندها كانت هي في السّادسة والعشرين وحاملًا في الشّهر الثالث بابنتنا سارة، وبعد ثلاث سنوات ولدت لنا التوأم أندلس وشكيب.

كنت مستغربة وأنا أفكّر في كلماته، ثم سألته:

– إذن لماذا اخترت الزواج منها؟

وضع كأسه، ومسح فمه بمنديل من الورق. ومن دون أن يهزّ رأسه قال:

– كنت ضحيّة زواج من دون حب قلّبت حياتي جحيمًا وكادت تقضي على موهبتي، عندما كتب عليّ العيش مع امرأة بعمر أمي. لكن الحقيقة أنّني لا يمكن أن أنكر أنّها كانت امرأة جيدة بروح مُحبّة وزوجة صالحة. كانت تضع احترامي وموهبتي نصب عينيها ومهتمة غاية الاهتمام بعملي.

أُطرق لبرهة، ثم أُضيف على كلامه:

– زوجي السّابق، عشت معه سنوات عسيرة أعقبت زواجنا مباشرة. كان متجهما طوال الوقت ومتقلب المزاج دومًا وكان على العموم باردًا ومشكاكًا ومرتابًا حيالي أو حيال أيّ شخص يقترب مني أو أقترب منه.

بصمت يطفئ سيجارته في منفضة السجائر ثم يبادرني:

– أعتقد أنّك بحاجة إلى ملء كأسك مرة أخرى.

أهزّ رأسي موافقةً من دون أن أنبس ببنت شفة.

ويردف مضيفًا بملامح متوترة ومنفعلة. أشعر برجله تهتزُّ كأنّ الندم يغمره:

– لا أنفي، فقد كنت أعربد مع أصدقائي في حانات خنشلة، مستمتعًا بأجواء الشرب والموسيقى اللّذيذة، تاركًا رجاء مع الأولاد في البيت، يقتلهم البرد في ليالي الشّتاء الطويلة، كانت تنفخ في النّار طوال الليل لينعم أطفالنا بالدفء وينامون بعمق.

كنا قد أمضينا ثلاث ساعات أو أكثر بقليل في تلك الحانة العابقة بالدُّخان، بعد طعام مع النَّبيذ. إذَّاك أخذ الرُّواد في التَّدفّق بكثرة، فرادى وجماعات. لم أتوقع أنَّ شريحة واسعة من العنابيين تعاقر الكأس، لذلك تفاجأت بالإقبال الكبير على احتساء البيرة أو النَّبيذ في تلك الحانة التي كانت المفضَّلة لدى جلال الجورناليست كما أخبرني حالما كنا على أهْبة الخروج. وعندما خرجنا كان الجوُّ قد تغيَّر من جديد. انخفضت درجة الحرارة وتغيَّم الطقس وبدأت الرّيح تعصف، أحسست بهواء بارد يلسع صدري. قبل أن ندخل الحانة كانت الشمس ساطعة، ها هي تختفي الآن قبل حلول وقت المغرب، وبدأت السماء تمطر. تلفَّع جلال بياقته وضغط بكلتا يديه على سترته كي يصدّ الهواء البارد عن صدره وأحنى رأسه كي يتجنّب مواجهة النسمات بعينيه وهو يقطع معي الطريق باتجاه وسط ساحة الكور. أردت في هذه اللّحظة أن ألفّه بروحي وأن أطبق عليه إلى الأبد. كانت رائحة عطره تنفذ إلى مساماتي وأنفاسه الدَّافئة توقظ لذَّة عذبة تسري في كِياني كلّه.

بينما نحن نجتاز ساحة مقاهي الكور المفتوحة التصقت بجلال ولم آبه بالعاصفة ولا بوابل حبات المطر على الرّصيف ولا بكيس الورق الذي طار من الأرض نحونا ولا بعلبة الكوكا الفارغة التي مضت تقعقع قريبًا منا، فقط كنت غارقة في محادثة نفسي: إنّه فنّان بحق، رجل من الصنف الذي لا يمكن توقّع ردة فعله، مزاجي ومجنون في ذات الوقت، ترتفع معنوياته في لحظة ما، ويائس محطم في دقيقة أخرى. يرى أشياء لا يمكن أن تراها عيون الآخرين، فكل ما يفاجئ النّاس ويقضّ مضجعهم هذه الأيّام، قضيّة طردهم وترحيلهم

إلى المدينة الجديدة في ذراع الريش أو الكاليتوسة، وتهديم زنقة الطّليان، وتحويلها إلى أنقاض يبني عليها فيما بعد حمّة طُلبي فندقًا فخمًا ويشيّد رفقته مولًا للتسوق، وسلسلة من المتاجر والمحلات لخدمة آلاف السياح، بعد خطّة الدّولة في تحويل لابلاص دارم إلى مكان يؤمُّه السُّياح من كل حدب وصوب.

البنوك تساعده على إنفاق المزيد من المال، فقد سبق وأشترى أرض زنقة الطّليان من المير، وسيتمكّن من استرداده في فترة وجيزة، بمجرد البدء في العمل. إنّ كلّ الصّحف المحليّة التي تناولت موضوع التّهديم، قد قرأها جلال، ووزعها على ساكنة المدينة العتيقة ومارس مع بعض الشّبان الذين كانوا بلا شك أفضل وعيًا من بقيّة ساكنة المدينة العتيقة، من أجل فهم مخططات ودسائس المير ومعاونيه، تأثيرًا قويًا في إقناع الناس بالرّفض ومقاومة هؤلاء المفسدين. لم يكن في يوم ما بخير، دفن ماضيه وكلّ ما كان يؤرقه ويضاعف تعبه ويراكم همومه من تفاصيل حياته السابقة في مقابر مفتوحة على البحر والرّيح، حيث وقف وحده في وجه الغضب والقنوط واليأس، شاهدًا يُودِّع بصمت ثقيل وأسود كل ذلك وإلى الأبد.

شغل النّاس وملأ الحياة التي عاشها صخبًا وتمردًا على كل شيء في محيط فاسد ومعاد لكل إنسان حرّ ومتجدد، كما كان يعتقد. لا يحتاج الرّجل إلى وصف أو تعريف بالنسبة إلى ساكنة لابلاص درام، فهو إنسان منفلت من القيود وقلق ومتذمر وشرس وساخط على الظّلم، وعارم وفوضوي وشكاك ومجنون وصاخب وحنون وحالم، لا أرض تثنيه أو سماء توقفه عن تحقيق ما يؤمن به. من خيرة ساكنة زنقة الطَّليان وألطفهم لغة وأسلوبًا وتواصلًا مع الناس؛ يتحلَّى بالقدرة على الانسجام حتّى مع الناس الذين يعرفهم معرفة سطحية أو لا يعرفهم تمامًا (غير أنَّ فيصل بونخلة استولى عليه، احتكره لنفسه، ولم يترك لي ولو جزءًا صغيرًا منه). ومن أشرسهم في الحق، انتقادًا للسُّلطات وإبداء للمواقف، وقد منحه استقراره في لابلاص درام،

واجتماعه بشلته، حافزًا للقيام بالكثير من الأشياء. لا يبالي بالنَّوائب جراء مواقفه وآرائه الحرة. فهو خارج السّيطرة والتّحكم والتّوجيه والصيّغ والتعليب. كان بمثابة روح أخرى، نقيّة وطاهرة وصادقة تحلّق في ممرات وأزقَّة وأنهج المدينة العتيقة، كان ينضح بأحلام النّاس البسطاء ورؤاهم المكثَّفة ورغباتهم السَّاطعة في غد أفضل كشمس مشرقة وباهرة.

إنّه من الصّنف النادر، مثقف، وحنون، ومكتمل، وقوي. كان صوته الدَّافئ والعطوف يمزّق فؤادي، وينبش جراحًا لم تكن قد التأمت بعد في داخلي. ظلَّ ذلك الصمت المتبادل مخيّمًا طيلة الطَّريق، مقربًا إيانا من بعض.

بعدما وصلت إلى الشقَّة، أشعلت النُّور وخلعت معطفي، ثم ارتميت على السَّرير وأنا غارقة في التَّفكير في جلال الجورناليست، وفي تلك الأسئلة التي باغتتني على حين غِرَّة: استنفدت طاقتي معه. لم أكن أحرز أي تقدم. كيف بإمكاني أن أجعله يقترب مني أكثر؟ وكيف أصل إلى قلبه وأجعله يحبني؟ وهل من الممكن أن أحصل عليه؟ وأنا امرأة قهرتني الوحدة.

أوّل شيء قمت به، بعد انقشاع سحابة التساؤلات، أنّني أخذت الموبايل في يدي وبدأت ابحث في قائمة الأسماء. ثم ضغطت على زر الاتصال.

– ألو، مرحبا خالتي زُبيدة.

جاء صوتها واضحا مُلعلعًا:

– وينك يا مرا، مُدّة ما اتصلتيش. ما ابقيتيش تحتاجينا وقيلا. باين فيك نسيتينا خلاص.

قلت مبرِّرةً:

– لا، والله ظروف العمل ومشاغل الحياة فقط أخذتني.

قالت:

– راكي معذورة. إذًا ما الأمر؟

قلت:

– أحتاجك بخصوص الرجل الذي سبق وحدثتك عنه.

قالت:

– كنت لتوي أفكر في شخص يرافقني. إذا ما لم تكوني مشغولة الآن، هناك أمر مهم بخصوص لقاء الشيخ معيوف عزارنية.

قاطعتها قائلةً:

– لا، مطلقًا. أنا جاهزة للقائك متى تشائين.

ردت:

– حسنًا، جهزي نفسك وبعد ساعة ألقاك عند مدخل الزاوية العيساوية التي تقع في النَّهج الذي يفضي إلى بوسطة السردوك. لعلَّك تعرفين المكان.

قلت وأنا مبتهجة:

– بالطبع أعرفه.. ليس بعيدًا.. حاضر، سأكون هناك في الموعد.

بعد عشر دقائق من الانتظار أمام مدخل الزّاوية، لم تتوقف الأمطار عن الهطول، كان هاجسي الأكبر هو ألاّ أتبلّل، فإن حصل وتبلّلت فإنّ ثمن ذلك هو أيّامٌ من المتاعب مع الزّكام. كنت واقفة على قدميّ وأنا أشدّ على ذراع المطّرية إلى أن وصلت زُبيدة الشوَّافة. استقبلتني بابتسامة عريضة حتى لاحظت بعض التجاعيد تكوّنت حول عينيها. ربتت على ظهري ويدها تهتزّ وقالت:

– منذ فترة طويلة، لم يظهر لك أيّ أثر، زورينا.. ما تطوليش علينا مرة أخرى. رانا نتوحشوك.

قلت وأنا أحاول أن أمنحها ابتسامة تظهر مدى سعادتي برؤيتها:

– صحيح، مضى وقت طويل.

لحظة ولجنا بوابة الزّاوية، قابلني رشيد العفريت ببذلة رياضية رمادية اللون وقبعة رياضية سوداء حافتها باللون الأحمر. كان يسلّم

على جلّ من يدخل قبل أن يصعد السلالم المؤدية للقاعة الرئيسية. غضضت البصر حتى لا تقع عيناي على عينه وهرولت صاعدة خلف زُبيدة.

أغلب الحضور رجال يرتادون ألبسة بيضاء تقليدية. هناك امرأة مسنَّة وبصحبتها ثلاث فتيات يجلسنَ في فضاء يطلّ على القاعة الرئيسية التي كانت مملوءة عن آخرها. خلف الكراسي حيث تجلس المرأة العجوز، خمس خزانات بيضاء اللون مصنوعة من الألمونيوم، تحفظ فيها الأحذية. وعلى الجنب ثلاثة مكاتب وضعت فوقها صينيات عليها فناجين مقلوبة وصحون مملوءة بالقريوَش والشامية والحلويات التقليدية والتمر وعلب العصير الكارتونية. أما عند الزَّاوية فهناك موقد عليه قدران لتحضير الشّاي، وبالقرب منهما إبريق.

بادر شيخٌ مسنٌّ إلى أخذ الميكروفون، رحب بضيوف الزَّاوية في كلمة مقتضبة. الرجل فصيح اللّسان، وبحَّة صوته زادته تأثيرًا في نفوس الحاضرين. بدأ في تلاوة المدائح: «صلّ اللّهم على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا...». ثم تلا بعدها الفاتحة والأدعية والأهازيج الصوفية. ثم تلا مجموعة أدعية ترحمًا على أرواح الأموات من أعضاء ومحبي الزَّاوية بالأسماء، واحدًا بعد الآخر.

مرَّ علينا شاب يرتدي قميصًا فضفاضًا، وأسفله سروال تقليدي وشاشية عنابية ملفوف عليها شاش، وثلاثة من أصابع يده اليمنى كانت مشتبكة بحلقة صفراء، تخرج منها ثلاث سلاسل، تنتهي بمبخرة نحاسية تفوح منها أبخرة الفاسوخ. فجأة لمحت رشيد العفريت انتصب كالصّنم وراح يحرّك يده اليمنى ويتفوه بكلمات غير مفهومة، مزمجرًا في وجه طفلين صغيرين تجاوزا درجات السلالم. بعد لحظة أسكته كهل بشقّ الأنفس. وبعدها بدأت أغاني العيساوة على وقع ضرب البندير والزرنة.

ثم تمّ توزيع الشاي علينا...

إلى أن بدأ رشيد العفريت يهتز كأنّ به مسّ، كان يتهوّل وحبات العرق الملتمعة على أضواء النيون تتصبب من جبهته.

«جيناكم.. جيناكم.. ما صبنا حِماكم.. لو لا فضل الله لجينا زورناكم...»،

«...أهل السماء فرحو بيك وأهل.. زادو...»،

«.... والسر والسر...»،

«...والي انشغل خاطرو بيك.. كيفاش...».

لا يلبث رشيد العفريت أن يترك مكانه ويسارع إلى درجات السلم، يقف مسمَّرًا هناك، يسلّم على الملتحقين. من شدّة اضطرابي من وجوده وجزعي من اقترابه مني، كنت أرقبه بين الحين والآخر.. فقد لاحظته يسلّم على الوافدين ثم لا يلبث بعد هنيهات أن يكرّر الأمر، بين المرتين والثلاث مرات.

أخبرتني زُبيدة الشوّافة، أن ذاك الشيخ الذي يرتدي جلابية زرقاء، هو معيوف عزارنية. أشار إلى خمسة من أعضاء فرقته، وإذ بهم يقفون في خط مستقيم ويشبكون أذرعهم على ظهورهم منحنيين وهم يحركون أرجلهم ويترنحون ذات اليمين وذات الشمال. كان يلتفّ من حولهم بشكل دائري إلى أن يقف أمام أوسطهم ويشرع بالقفز برشاقة في حركات صوفيّة متناسقة، بطريقة أثار من خلالها انتباه أغلب الحضور. ثم يتعالى صوته بعبارات خاصة، لم أستطع فك كنهها.

همّت زُبيدة واقفة، دون أن تنبس بكلمة. لم أجد سببًا لذهابها المباغت. اختفت عن ناظري. بعد برهة لمحتها وهي تهمس في أذن الشيخ معيوف عزارنية. لما انتبهت لي وأنا منغمسة في مراقبتهما، أشارت لي بأن أتقدّم نحوهما.

ما أن جلست، حتى سألني الشيخ عن اسم الرجل، أخبرته: «جلال».

وفي أثناء ذلك نظر إليّ العين في العين، وقال:

– هل تحتفظين بصورة له؟

رددت بدون أن أشعره بأنّني أتلافى النظر في عينيه:

– بإمكاني إيجاد واحدة.

ثم التفت باتجاه زُبيدة الشوّافة وقال:

– الخميس ما بعد القادم، بإمكانك إحضارها برفقتك للزّردة وسنرى ما باستطاعتي فعله حيال طلبها.

زُبيدة الشوّافة كانت امرأة خدومة جدًا، لا أتذكر أنّي سبق وقصدتها وأرجعتني خائبة، كما أنّها غير مكلّفة إطلاقًا مقارنة بالآخرين المتطلّبين جدًا، مال قارون لا يكفيهم! تأخذ من مائتي دينار إلى خمسمائة دينار فقط، وعندما أكون مفلسة كنت أكتفي بأن أمنحها خمارًا أو قارورة مزيل العرق أو أي غرض آخر متاح وكانت دومًا ترضى ولا تتبرم أبدًا. كانت شهرتها لا تتعدى لابلاص دارم، تقصدها نسوة المدينة العتيقة لقراءة الطالع والفنجان.

في بداية الأمر رأيت في منامي امرأة تشبه زُبيدة الشوَّافة، كأنَّها تقرأ فنجانًا، لم أتحدث مع أحدٍ بخصوص المنام أو بما كان يشغلني ويؤرّق بالي، فقط سألت عن امرأة تقرأ الفنجان وأخبروني عن زُبيدة. في العادة لم أكن أهوى كلَّ ما هو غريب وغير مألوف، فالأشياء الغامضة لا تثير شغفي ولا تجذب انتباهي، لكن لما وجدت الأمر متعلقًا بمصيري فهذا بالطبع ما أثار فضولي لأقصى حد. فأصبح لديّ استعداد تام للقاء زُبيدة الشوافة في أقرب فرصة ممكنة ولم أكن مهتمة بانطباعات الآخرين المغروسة في أذهاننا منذ الصغر عن قراءة الفنجان، على أنّها خزعبلات ليس أكثر ولا أقل أو وسيلة للتربح والتلاعب بغرائز البشر مثلها مثل الكثير من الأشياء التي نعلمها جميعًا. وتعتمد بشكل كبير على سذاجة الشخص.

لا أخفي أنني ارْتبت منها بعض الشيء في بادئ الأمر، في أوَّل لقاء جمعني بها. ذلك المساء وبحلول الرابعة وعشر دقائق كنت قد

رجعت من العمل وقمت بما يمكنني عمله بالشَّقة. أنهيت القيام ببعض الأعمال المؤجلة ثم نظَّفت نفسي بإراقة بعض الماء الدافئ على جسدي، نظَّفت أذنيَّ، قلَّمت أظافري وجددت صباغتها. بعد أن قمت بتجفيف شعري، تمددت قليلا، كان عليَّ الانتظار حتى يصل عقرب السَّاعة إلى السَّادسة إلا ربع، وبحلول الموعد قرَّرت الذهاب إلى بيت زُبيدة الشوَّافة.

جلست كل منَّا في مواجهة الأخرى عبر مائدة خشبيَّة صغيرة الحجم، مستديرة الشَّكل وقديمة، تتوسطها شمعة مثبّته فوق طبق صغير، وبجوار الشّمعة فنجان قهوة. كانت الحجرة ضيّقة ولم يكن فيها الكثير من الأثاث، كنا نجلس على مقعدين صغيرين من الخشب مساميرهما صدئة، وكومة من الملابس من خلفنا عند الجدار. كانت أرضية الغرفة مليئة بالغبار وكان طلاء جدرانها باهتًا، توجد بها نافذة واحدة مغلقة بألواح خشبية من الدّاخل، كانت أشبه بحجرة مهجورة.

كانت زُبيدة الشوّافة يومها تسأل وكنت أجيب. حيث كانت تجلس بزيّها المتواضع وكنت اعتقد آنذاك أنها تتظاهر بالحكمة والعلم وتحيط نفسها بهالة من الغموض في نفس الوقت. هذه الأجواء جعلتني أشعر بالتململ في البداية. فلما كانت تقرأ لي الفنجان، شعرت أن كلامها الذي قالته، كان ممطوطًا يحتمل آلاف المعاني ويمكن أن ينطبق على أيّ شخص آخر في الكون، على غرار مثلا: (أمامك طريق طويل لا ينتهي..)، أو (لقد تعبت جدًا في حياتك)، أو (انتظري رؤية شخص قريب منك جدًا)، أو (هناك شخص لا يحبّك في العمل ويحضّر لك أمرا سيئا، فاحذري منه)، وهكذا.

شعرت بالطبع أنّها عبارات عامة جدًا ومراوغة جدًا، فمن منّا لا ينطبق عليه كل ذلك.. ولم أكن لحظتها أستمع لها وأنا مأخوذة كالمسحورة ... هذا كان انطباعي السّابق عن زُبيدة العرافة. كانت المفاجأة المدوّية حالما أخبرتني زُبيدة ببعض أسراري الخاصة جدًا التي تقريبًا لا يعرفها أحد سواي! والمشكلة أنّ الكلام كان دقيقًا

ومحددًا بشكل كبير، ولم يكن كلامًا عامًا! لاحظت أيضًا أنّها لم تخطئ في أيّ معلومات قدمتها أمامي. ثم انصرفت وأنا مشتتة من الدّاخل وبدأت أعيد ترتيب أفكاري ببطء.. كيف لها أن تعلم بعضًا من الماضي الخاص بي!؟

لقد أصابت الهدف ومسّت بكلامها شيئًا ما بداخلي. كانت زُبيدة تمتلك القدرة على معرفة ما يدور في عقلي لكنها عجزت عن تقديم كل الأجوبة لذلك وعدتني لاحقًا بأن تبحث لي مع الشيخ معيوف عزارنية. وحسب ما أخبرتني به، أن له قدرات كبيرة في السحر وتسخير الجان وهو من أحتاجه إزاء ما أنا مقدمة عليه.

6

في الطّابق الأخير هناك حجرة ضيّقة مهملة لا يسكنها أحد، فيها سرير حديدي ومشجب خشبي وخزانة صغيرة لها باب واحد، ولا توجد بها نافذة، عدا أن في أعلى الجدار فوق وسادة السرير هناك فتحة مربعة الشّكل لاستنشاق الهواء. سبق وأن اقترحت عليّ صاحبة البناية تلك الحجرة ورفضتها تمامًا لأنها أشبه بالجحر ومن سابع المستحيلات أن أدفن نفسي بالحياة في مكان بائس كهذا.

تناهى اليوم إلى سمعي حديث جانبي كان يدور بين جلال الجورناليست وصاحبة البناية في الطّابق الذي أقيم به، لما كنت على أهبة الخروج من شقتي، وملخص الحديث أنّ هناك ساكنًا جديدًا سيقيم قبل حلول الظّهر في تلك الحجرة.

في نهاية مداومتي، قابلت وبمحض الصدفة، على حد استنتاجي، ذلك الساكن الجديد الذي سمعتهم صباحًا يتحدثون بأمره. إنّه نونو لارتيست. فبينما كنت على أهبة الدخول إلى البناية، إذ بي أجد نفسي في مواجهته لدى بوابة الخروج. كان المساء باردًا وكئيبًا، هطل المطر ذلك النّهار وهبت رياح وكانت السّماء بلون رمادي كأن حيوانا ضخما يقبع فوق الشّمس، ومع ذلك كان يرتدي سترة خفيفة من خيط الصُّوف، فوق قميص أسود، غير مبالٍ تمامًا بالطقس البارد! كان يتميَّز عن الآخرين بهيئته التي تشبه الرياضيين، له بطن مستوٍ وعضلات قوية وجذع لدن. شعره ناعم، شديد السواد، تطوّقه قبّعةٌ رياضية، وله غمازة صغيرة في الذقن. نظرت إليه لعدَّة ثوانٍ، ظلَّ

ذلك الصَّمت المتبادل مخيّمًا لبرهة، وبعد ذلك خاطبني قائلًا وهو يلقي نظرة على معطفي البنيّ الأنيق، وحقيبة يدي السوداء المتدلية من كتفي:

– مساء النّور، أنا جاركم الجديد.

– مرحبًا بك، تشرفنا.

قبل أن أضيف فاجأني بإشارة من رأسه معتذرًا:

– معذرة عليَّ المغادرة للّحاق بأمر عاجل.

قلت:

– لا عليك.

قال:

– أشكرك.

وهكذا انتهت المحادثة، وراح كل منا في حال سبيله.

مرَّت الأيَّام القليلة التَّالية دون أن أصادفه. بيد أنَّني حينما استيقظت ذات يوم جمعة ووجدت كل المؤونة على قلَّتها قد نفدت، ذهبت إلى متجر عمي حسين عيَّاد للبقالة ذي الأسعار المنخفضة، وكان رجلًا طيبًا يمنحني بالدين، لغاية نهاية الشّهر، وكنت في الغالب أتأخر عن السّداد.

حينما كنت في طريق العودة للشّقة، وجدت جلال والجار الجديد في نهج فيليب غير بعيدين عن مدخل زنقة الطّليان يتحدثان. أثار مشهدهما فضولي، لم أتمالك نفسي حتى وجدتني أقترب منهما، لم آبه أن أبدو أمامهما بتصرفي ذاك غريبة الأطوار. بادرني جلال وهو منشرح الأسارير:

– أهلا بك دلال، أتمنّاك بخير.. لم أرك البارحة.

رددت عليه التّحيّة وطمأنته بأنّ كلّ شيء يسير معي على أكمل وجه. قلت ذلك كي أثير انتباه نونو لارتيست.

قال نونو لارتيست رافعًا رأسه:

– الحمد لله أنّك بخير وأمورك على أحسن ما يرام.

قلت لهما:

– معذرة على أني قطعت حديثكما.

تطلّع جلال إلى نونو لارتيست بابتسامة:

– كنا قد بدأنا للتوّ حديثًا عن الفنّ، ووضع الفنانين ومعاناتهم. الأمر عادي. لا تقلقي.

حدّقت في وجه جلال في صمت.

قال نونو لارتيست وهو ينظر إلى النّاس في غدوهم ورواحهم:

– إيه يا جلال يا جاري العزيز.. الفنّان يعاني بحق ومعاناته تختلف عن معاناة النَّاس العاديين، فهو يعرف، ومن يعرف يتألم أكثر ممن لا يعرف.

بدا نونو لارتيست وكأنَّه يفكّر في ما سيقوله لاحقًا، كأنَّه كان يحفظ الكلمات التي تفوَّه بها عن ظهر قلب. لم يستغرق ذلك وقتًا طويلًا حتى أضاف:

– أمضيت معظم سنواتي الخمس عشرة الأولى في العمل في الغناء للمساعدة في سداد ديون والدي. لم تكن حياتي سهلة والموسيقى كانت واحدة من الوسائل التي استخدمتها للترفيه عن النَّفس. بدأت كتابة الأغاني بعمر صغير جدًّا وتحديدًا عندما كنت في الثَّانية عشرة. لما أنهيت دراستي الثَّانوية، غادرت عنَّابة إلى فرنسا بحثًا عن وظيفة، خاطرت بالذهاب إلى باريس وعَمِلت لفترة في المطاعم والحانات ومصانع عجلات السيارات.

قال جلال باستياء بالغ:

– لا شيء يأتي بالسَّهل في هذا البلد. فأنا عقدت آمالي في بداية مشواري على نيل شهادة من المدرسة العليا للإدارة التي كان يتخرَّج

فيها رجالات الدَّولة. إلَّا أنَّني قررت بدلًا من ذلك الدّراسة في المدرسة العليا للصحافة والإعلام بالعاصمة. لكي أضمن وظيفة مرموقة في التلفزيون العمومي أو في وكالة الأنباء. لكن في الوقت غير المتوقع تركت تلك المدرسة وغادرت العاصمة نهائيًّا ومن غير رجعة. لأنتقل فيما بعد إلى استكمال مساري الدراسي في قسم الإعلام بجامعة تبسة غير البعيدة عن خنشلة. بعد زواجي، اندفعت خلف لقمة العيش المرَّة بإذاعة خنشلة. وبعد سنوات وبالضبط بداية من السنة الثانية من زواجي تقريبًا تحولت مع التمادي في شرب الخمرة وتعاطي الكيف، إلى شخص منبوذ ومكروه وسط محيطي المحافظ الذي يعجُّ بالغلاظ والحمقى والجهلة الأثرياء.

حالما توقف جلال، استأنف نونو لارتيست الكلام ثانية، بعد أن تنهَّد تنهيدة طويلة:

– ولدت في عنَّابة، حيث كان والدي، يعمل عازفًا محترفًا لآلة الكمان بفرقة موسيقية في المالوف، وكانت والدتي تعمل خيَّاطة. وقد ظهرت صورة والدي على غلاف إحدى المجلات وهو يرتدي طربوشًا أحمر وفي يده كمانه الأبيض. وسافرت رفقة والدي في صغري إلى باريس، وهناك تعرضنا للعديد من المتاعب بسبب غياب فرص العمل، لكنَّ والدي تعــرَّف على موسيقي فرنسي، درست على يده فيما بعد الغناء، ثم تعرف على مدير إذاعة محلَّية في مارسيليا، الذي أنتج لي أوَّل كاسيت عام 1996، لكنها لم تنجح كثيرًا. وفي عام 1997 غنَّيت في مسرح صغير بباريس. كنت أغني أغاني لمحمد عبد الوهاب، ما لفت نظر صاحبة كاباريه ليتوال، فأعجبت بصوتي وطلبت من والدي أن يسمح لي بالغناء عندها في الكاباريه. فحققت النجاح من خلال ذلك، وأسست بعدها فرقة غنائية. للأسف عاد بي أبي إلى عنَّابة عام 1999، بعد أن نلت شهرة في بعض المدن الفرنسية.

قلت مبتسمة دون اقتناع كبير:

– من يراك لا يعرف أنَّ حياتك لم تكن سهلة على الإطلاق.

بدا نونو لارتيست مترددًا ثم أومأ من دون أن يضيف.

حدَّقت في رغوة الشاي في كوب جلال الكارتوني واستأنفت الكلام لاستدراك الوضع:

– أتَّفق معك تمامًا، لا يُصنع المجد من دون دفع ثمن، بل ثمن باهظ في غالب الأحيان.

أغمض نونو لارتيست عينيه لمدة قصيرة وتقلَّص وجهه مرة ثانية ثم قال:

– لم أكن أشعر بأنَّي مجرَّد فنَّان. كنت أشعر أنَّ الفنَّ يستحق أن يُؤدَّى بطريقة احترافية، فكنت كما لو أنَّني مقاتل بمعركة، كان عليَّ ألا أخاف وأظهر الشجاعة إزاء ما أنا مقدم عليه أو أن أعيش أبد الدهر بين الحفر، فلا مجال أمامي للخطأ أو التهاون أو الضحك. أعتقد أن الشعور بالكرامة هو دافعي الأوّل.

التفت نحوه جلال ونظر إليه نظرة جيِّدة، ثم بعد ذلك دخل في صلب الموضوع:

– كيف كانت بدايتك مع عالم الغناء؟

نظر نونو لارتيست إلى جلال وهو يداعب ساعة يده. بينما استلَّ جلال سيجارة من علبة سجائره، أشعلها. أجابه نونو:

– كنت مولعًا بالتمثيل والفنّ منذ الصغر. جدَّتي هي من وضعتني على سكَّة الفنّ، أتذكَّر أنَّها بدأت تشجعني وتحثني على الغناء وأنا لم أتجاوز بعد سنّ الثّالثة، كانت رحمها الله كلما غنيت بطريقة جيدة منحتني دينارًا. وهكذا حتى أدخلتني مدرسة الموسيقى بالمسرح وأنا بسنّ السّابعة، ومن شدّة نبوغي أبهرت أساتذتي، فقد كنت أفضل تلميذ، حتى أن مستواي كان يتجاوز بعض الأساتذة وقتذاك. ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحت أستدعى للراديو وتحاورني الصحف. لقد غنّيت في العديد من الأماكن المهمة، على مدى سنوات عديدة، لدرجة أصبحت مثار غيرة زملائي.

انتابني بعض التّململ. اتكأت بكوعي على الجدار الخارجي للمبنى وأنا أحتسي الشاي من كوب جلال، ثم نظرت خلسة إلى جسد نونو وواصل هو حديثه:

– تزوجت مع آنصوفي، لما رجعت لفرنسا مرة أخرى، واستقريت معها في باريس، حيث عملت باجتهاد بائعاً في أحد المتاجر. وبجانب ذلك تابعت مشواري الموسيقي.. وشكلت مع القليل من رفاقي هناك فرقة صغيرة للغناء، وذلك أعطاني الفرصة للرجوع إلى العزف والغناء في عروض حية، وأيضاً أخذت دفعة في مجال كتابة الأغاني. لقد كنا رهيبين، كنا نأخذ آلاتنا الموسيقية لهذه البارات الرخيصة والصّاخبة ونعزف حتى يلقوا بنا خارجاً أو حتى تبدأ المعركة. تعرضنا للسخرية والازدراء من قبل الكثيرين. لكن كل ذلك الجدل توقف بعد حين، وفي كثير من الأحيان كنا نتوجه مع زوجاتنا للعزف في بيت أحدنا ومعظم المقطوعات كانت من انجازي. أصبحت قائد الفرقة.

هززت رأسي. فتطلَّع جلال إلى نونو لارتيست بابتسامة حزينة:

– لو تسمح، أخبرني كيف تعرفت على زوجتك وماذا حلّ بك فيما بعد؟

نظر إلى الدخان وهو يتصاعد في سحب متتالية ثم أجاب:

– زوجتي رسّامة فرنسية، تعرفت عليها في أثناء جولة على متن قارب بنهر السين، اسمها آنصوفي، كما سبق وأخبرتك. ربطتني بها أوّل الأمر علاقة مدّتها ثلاث سنوات، تزوَّجت بها بعد ذلك واضطررت إلى الطّلاق منها بعد زواج رسمي دام عشرة أشهر. غنيت في عدة مهرجانات أوروبية وعربية. حصلت فيما بعد على الجنسية الفرنسية، كما قمت بأدوار في عدة أفلام ببلجيكا وفرنسا، نالت شهرة واسعة. مع ممثلين عالميين، فسرقت منهم الأضواء. ثم كانت حفلاتي هناك تحقق نجاحا كبيرا.

لم يكن لدى جلال ما يقوله، فلم يتفوّه بشيء، عدا أنه ربَّت على كتف نونو لارتيست. أما أنا فكنت مترددة من سؤاله، مرد ذلك خشيتي من تأويل كلامي. لكن في النهاية تشجعت وسألته:

– يا إلهي..، لما انفصلت عن زوجتك؟

تمتم جلال:

– لا داعي لهذا السؤال المحرج، ليس وقته دلال.

ساد صمت لبرهة ولم أنبس ببنت شفة.

إلى أن أوضح نونو:

– دعها على راحتها..

ثم أضاف وهو يدخل يده في جيب سترته كأنه يبحث عن شيء ما:

– مشكلاتي كلُّها بدأت لما وقَّعنا فيما بعد عقدًا مع شركة إنتاج وصدرت لنا عدة أغانٍ. كانت سببًا في تحقيق بعض الشهرة لفرقتنا الصغيرة. تأثرت بالجدول الزمني المزدحم والضغوط التي واجهتها وانعكس ذلك سلباً على حياتي الشخصية. وعندها غادرت زوجتي المنزل، تزايد إحباطها بسبب غيابي المتكرر عن المنزل، وفي نفس العام قدمت أخيرًا طلباً للطلاق. كانت حياتي الشخصية أشبه بدوامة خارج السيطرة. وفي العام التالي، بعدما تعاطيت المخدرات، وجدَني شرطي شبه ميت بجنب محطة الميترو بباريس. ووقعت حوادث أخرى تسببت في اعتقالي.

قلت وأنا أنظر إلى نونو:

– الحياة دوما تخذلنا، تشعرنا بالاطمئنان ثم تنزل هراوتها الثقيلة فجأة على رؤوسنا بدون رحمة.

أومأ جلال موافقًا على كلامي. وساد الصمت مجددًا.

قلت وأنا أحدّق بطلاء أظافر يدي:

– لو كنت مكانك لبقيت في فرنسا، ولما رجعت مطلقًا للجزائر.

قال جلال ساخرا:

– أنا لا أوافقك، الجزائر أمّك مهما قست عليك. وفرنسا زوجة والدك. ولا خير في زوجة الأب مهما أبدت حسن النِّيَّة. ولا وجه للمقارنة بين الأم وزوجة الأب.

قال نونو وكأنّه تذكر أمرًا ما:

– على فكرة، كانت علاقتي مع والدتي سيئة واختلفت معها حول مستقبلي. وأنا في سن صغيرة، أردت متابعة حياتي في مجال الموسيقى. والدتي كانت مستاءة من الأمر، كانت ترغب في أن أصبح طبيبا.

قال جلال ضاحكًا:

– العائلات الجزائرية، كلّها بدون استثناء ترغب في أن يصبح كل أبنائها أطباء.

استمر نونو لارتيست في الكلام:

– رغم أنني أحطت بالشهرة والثناء، إلّا أنّني سرعان ما وجدت نفسي أسيرًا للحزن، بعد كل المشكلات التي حدثت لي ففكرت في العودة إلى عنّابة مرة أخرى. كما أنّني كنت أفكر في الجزائر كثيرًا، كان يغلبني الحنين إليها وأنا ببلاد الغربة، وكانت أمنيتي دوما هي متى أرجع إلى أرض الوطن.

نظر جلال إلى ساعته وقال:

– فيصل بونخلة في انتظاري الآن بمقهى الصفصاف وهو لا يصبر ولا يطيق الانتظار طويلًا. وما عليَّ إلا أن ألتحق به.

إذّاك استأذنتهما وغادرت.

7

الموظّف الذي كان غارسًا عينيه في خانة تاريخ الميلاد في بطاقة التعريف الوطنية الخاصة بي، أزعجني لحد لا يوصف، لكنّني حاولت جاهدة أن أبقى متماسكة حتّى لا أفقد أعصابي وأنفجر بالبصاق في وجهه الخرائي. اللّعين لا يتوقّف عن إطالة نظره والبحلقة في بطاقة هوّيتي، ولا يكاد يرفع عينيه عنها حتّى يعيدهما وهو يتلمّظ بقيّةَ الطّعام في فمه. يفتح شفتيه في أثناء ذلك ويغلقهما بصورة مزعجة ثمّ يخرج مرة أخرى لسانه ويمسح به شفتيه، في صورة تثير الغثيان والقلق في الوقت عينه.

حدث ذلك في أثناء وجودي في دار البلدية بناءً على طلب بوجمعة غريسي الذي توسط لي لدى موظّف لجنة إحصاء السكنات كي يدرج اسمي ضمن قائمة المستفيدين من السكن. مرة يخبرني على أنَّه زميل سابق له في الدّراسة ومرَّات يحدّثني على أنَّه أحد معارفه أو من جيرانه القدامى، وفي أطوار أخرى يسرُّ لي أنه من أقربائه، ويترجاني ألا أخبر أحدًا من الجيران بزنقة الطّليان كي لا يتهافت عليه الجميع كالبق. طبعًا بوجمعة غريسي كما يعرفه الجميع هنا، لا يقدِّم شيئًا هكذا «لله.. في سبيل الله»، طلب منّي حين تُقضى حاجتي أن أتذكَّره في العيد الكبير بكبش يملأ العين. ما كان عليَّ لحظتها سوى أن تظاهرت بالموافقة على طلبه بكلّ طيب خاطر، في حين أسررت في نفسي على ألا ينال منّي هذا النَّذل الطمَّاع سنتيمًا واحدًا.

تسلَّلت كلُّ الأفكار المزعجة والوساوس إلى رأسي وأنا واقفة مثل عمود إنارة. كنت أتطلّع إليه وهو مستمر في البحلقة في بطاقة هوّيتي، لماذا يا ترى لم يرفع عينيه عن الجزء المخصص لتاريخ ميلادي؟ ليتهم ألغوا تلك الخانة من البطاقة، لو كان بإمكاني فعل أيّ شيء حيال هذه المعلومة المثيرة للقرف، لمحوتها من دون تردد من بطاقتي.

رفعت ذراعي اليمنى حتى انطوى مرفقي ثمّ لامست براحة يدي رقبتي وأخذت أضغط بالسبابة والإبهام على حنجرتي برفق حتى لا أعبِّر بصوت مسموع عما كان يعتمل داخلي. هكذا بدأت أتغلّب تدريجيًا على نفاد صبري ولم يكن أمامي لحظتها من منفذ سوى أن أخبرته عن قصة أختي التي توفّيت قبل ميلادي بسنوات وكيف أنّ والدي أهمل تدوين وفاتها في سجلّ الوفيات بالبلديَّة. وحين رزقهم الله بي فعل الأمر ذاته معي، لم يكلّف نفسه تسجيل ميلادي في سجل الولادات. وتلقائيًا أخذت اسم وتاريخ ميلاد أختي دلال المرحومة ومع ذلك بقي الملعون من حين لآخر يعيد الكرَّة ويغرس عينيه في بطاقتي ثم يرفع رأسه ويحدّق في وجهي برهة زمن كالمعتوه. لا خير يرتجى من معارف بوجمعة، غير المتاعب التي تكسر الرأس.

مضى أسبوعان على ذلك اليوم في البلديَّة، وما زلت قادرة على استعادة كل تفاصيله. الذَّاكرة شيء متعب، حين يخطر على بالك ما يؤرّقك ويقضُّ مضجعك، أمَّا حين تستعيد الأشياء المبهجة، فإنَّك تتمنى في قرارة نفسك أن تبقى غارقًا في وهمك الجميل! بين مشاهد تثير شحوبك وصور تدفعك للحبور خيط رفيع في الذَّاكرة، لا أحد يمتلك القدرة على التّحكم فيه.

أما الآن فإنّ مشهد أواخر شهر أوت الرطب القائظ، هو أوّل شيء يخطر على بالي. حين وصلت إلى عنّابة وأنا في الثَّالثة والثَّلاثين من العمر، أو الرابعة والثلاثين، أو أكبر بقليل أو بكثير، لا أتذكر

بالضَّبط عمري؛ بصراحة الحديث عن العمر يضجرني إلى حد لا يطاق، يشعرني بالملل والكآبة إلى درجة أصبح معها على أهبة الاستعداد لقتل أحدهم، لذلك كلَّما يطرق أحدهم باب هذا الموضوع أمامي تجدني أعطيه عمرًا كيفما اتفق، حتَّى أسدَّ فمه بقطعة حجر تقطع أنفاسه الكريهة. طبعًا الأمر يتوقف على طبيعة السَّائل وجنسه وسنه، فأحيانًا يكون العمر جاهزًا ومحددًا وأجيب بطيبة خاطر: في بداية الثلاثينات، وفي أحايين أخرى خبط عشواء: تارة في نهاية العشرينيات، وطورًا في منتصف الثّلاثينات.

وصلت إلى عنَّابة قادمة من القالة بعد أن أقلني خميسي الفرود بمشقَّة من منطقة السوارخ إلى محطة الحافلات بالقالة، من أجل الإقامة هناك. وقد أقمت في النّهاية في بناية متداعية من الطراز القديم أطلق عليها بعض ساكنة المنطقة، اسم «مركب تيتانيك»، فبعد هذه الرحلة الماراطونية وكلّ الأحداث غير المشجعة التي سبقتها، ونفسيتي المتدهورة، كنت عازمة على أن أبقى بشكل نهائي وأن أغيّر حياتي وأعيش حياة جديدة في مدينة كبيرة وناسها متمدنون، وهذا ما لم يخطر ببالي من قبل ولم أكن أتوقع أنَّني سوف أحقق ما يتعدى أحلامي، فقد استعدت خلال إقامتي بعنَّابة ثقتي بنفسي وبقدراتي كأنثى. أنا التي ولدت في السوارخ، منطقة صغيرة تقع في طرف الدنيا، مقفرة ومتدهورة على كلّ الأصعدة، كأن الحكومة نسيتها أو واصلت في إهمالها والتّنكر لها عن قصد، لأنّها منطقة لا تعنيها ولا تدخل في نطاق اهتمامها، لا في حساباتها الضَّيِّقة أو الواسعة، وفي النّهاية الكلّ هناك يصفق وينتخب برنامج الحزب الحاكم بطيب خاطر، ككل مرة يجرى فيها التّصويت تؤول النّتائج لصالح نفس الوجوه المقزّزة والمنفّرة. هذه المنطقة قدرت في وقت مبكر من أعمارنا على قتل أحلامنا قبل أن تقدر بجدارة على قتل رغبتنا في الحياة، الأمر سيّان أن تحيا أو تموت، لا يوجد أدنى فارق، إنّها أشبه بمقبرة كبيرة لا حياة فيها. عدا تلك الزيارات للأموات للدعاء

أو التبرك، ويفعل السياسيون الأمر ذاته عندما يتذكرون زيارة منطقتنا مرة واحدة كلّ موسم انتخابي لتسوّل الأصوات والنفاق السياسي. في هذه المنطقة النّائية يجب أن تقتل فلذة كبدك لكي تنجو بنفسك.

مضى وقت طويل على ذلك، وما زلت قادرة اليوم على استعادة تفاصيل حياتي السابقة في السوارخ، رغم الآلام التي تعصف بي حينما تعود بي الذاكرة إلى هناك. لا أستطيع نسيان الأمر، كما حاولت مرارًا وتكرارًا أن أمحو تلك الفترة من حياتي، أن أقطع دابرها نهائيًا، لكنني مُنيت إزاء كلّ تلك المحاولات بفشل ذريع. الذاكرة شيء مرهق، يظلّ ملتصقًا بنا، يتبعنا في أي مكان نذهب إليه، لا نتيجة ترتجى من الهرب، يلعب معنا لعبة الكرّ والفرّ داخل أذهاننا، لغاية أن يستنزفنا بشكل كامل. لا شيء يدعى الانتصار على الذّاكرة. قد يكون هناك ما يسمى بقلب الصّفحة، لكن لا يوجد مطلقا شيء يدعى تمزيق الصّفحة.

8

في طريق العودة إلى شقّتي انتبهت لعلجية المدّاحة تتطلّع بعينين قلقتين في الأرجاء. كنت في تلك اللّحظة منهكة من لقاء ذلك الموظف المعتوه. ما إن لمحتني حتى أقبلت نحوي بخطًى متسارعة، لما اقتربت مني مساحة كافية وهي تقطب جبينها، ابتدرتني من دون أدنى مقدمات سائلة:

– هل سمعت بما حدث مع ناجي الرجلة؟

لم يكن لديّ أدنى فكرة عما تتحدث عنه المرأة، لذلك سألتها بحذر:

– لا، لم أسمع بأيّ شيء مطلقا. غير الخير طمنيني.

تردّ علجية بصوت متلعثم:

– عُثر على نجاة ميتة في الخرابة التي تعيش فيها.

نظرت بتوتر في وجهها بدون أن أجفل وأنا أمسح براحة يدي فوق رأسي:

– لا، مستحيل، غير ممكن.

تقول بنبرة يائسة ومبحوحة، مخنوقة بالدموع:

– يا إلهي لم تكن نجاة تعلم إن نهايتها ستكون على يدّ القطط التي ربتها وحمتها من البرد والجوع.

يعتريني بعض القلق والغضب ولا أتمالك نفسي وأنا أحدّق فيها صارخة:

– كيف كانت نهايتها على يد القطط، لم أفهم؟

تتردد علجية قبل أن تجيب:

– تم العثور على جثتها داخل الخرابة التي تعيش فيها، تبيَّن أن قرابة عشرين قطة كانت ترعاها نجاة التهمت انفها وعينيها، ونهشت أجزاء من ذراعيها.

أحاول أن أستجمع أفكاري وقواي، وأنا أعضّ على شفتيّ، ثم أسألها:

– هل القطط آكلة للحوم البشر.. هل تحوّلت إلى كانيبال؟

تهزّ علجية رأسها:

– يقال إنَّها بعدما شعرت بالجوع، وقد تعذَّر عليها الخروج من المكان بسبب أنَّ البوابة موصدة بالأسلاك.

كنت خائرة القوى وشبه منذهلة من هول ما سمعت منها ورغم ذلك أضفت:

– وكيف وصل خبر وفاتها؟

ردّت علجية وهي على أهبة المغادرة، تترنّح كأنَّ خطواتها مهتزة:

– انتبه بعض الجيران من انبعاث روائح كريهة من الخرابة التي كانت تقيم بها نجاة. فقرروا فتح بوابة الخرابة، ليتفاجأ الجميع بنجاة جثّة هامدة.

9

في أثناء اللَّيل، حين حلَّ الظَّلام وأصبح كلُّ شيء ساكنًا، وبالضَّبط عند العاشرة والنّصف ليلًا، مشيت جهة القابض، ضغطت عليه بتململ. الغرفة مظلمة الآن، أويت إلى فراشي، وحاولت أن أنام.

كان يومًا منحوسًا، ابتدأ مع ربّ عملي الأستاذ جمال حيّاهم ثم حدث ما حدث في لقائي مع قريب بوجمعة غريسي، علاوة على الخبر المفزع عن موت نجاة الذي زفته لي علجية المداحة حين قفلت راجعة إلى الشّقة. كيف لي أن أفعل ما فعلت مع الأستاذ جمال حيّاهم، لماذا حينما اقترب مني اليوم تجمّدت في مكاني وأصبحت -على غير العادة- غير قادرة على القيام بأيّ حركة؟ هل أحسست بتنمُّل رجلي وكل أطرافي مخدرة بمجرد أن رأيت تلك الجريدة على مكتبه؟ لماذا فقدت السيطرة على نفسي؟ لماذا تصاعدت ضربات قلبي وشعرت بانقباض في عضلاتي؟ بدوت حزينة ومحطّمة، حاولت إخفاء ملامح حزني على الأستاذ جمال حيّاهم. كنت أقاوم الصّدمة وأحاول جمع شتاتي. اتجهت صوب حمام مكتبه، بقيت فترة وجيزة، ربَّما عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، عندما عدت كان وجهي مبللًا بالماء، فعرف أنّي كنت أبكي في الحمام. دلّك رقبته بعصبية وفك ياقة قميصه على حين غرة كأنّه شعر بالاختناق.

أكان ذلك الخبر التافه سببًا كافيًا في تصبب العرق من جبيني بشكل مفزع؟ ألهذا الحد جعلني خبر وجود فتاة صغيرة مقتولة بعدما تـــمّ اغتصابها، مشوشة ولا أقوى حتى على التفكير؟ كانت

حلقة متتابعة من الأحداث. كان الأستاذ جمال حيّاهم قد همّ بي لما رأيت صدفة خبر الاغتصاب بالبنط العريض على الصفحة الأولى من الجريدة خلف الرزنامة والمجلّدات المصفوفة فوق بعضها على مكتبه، وبالضبط بين المحبرة والحاسوب. عاد بي ذلك العنوان إلى ذكرى مؤلمة كأنّها حدثت الآن، استعاد عقلي المراقب العام في المدرسة، ذاك الوحش المسمّى: سي مهذب محمد فوزي، الذي انتهك براءتي وأغرقني حتى الرأس في بالوعة العار الآسن. بسبب ما فعله معي أصبحت أمقت نفسي، شعرت بأن جسدي ملوّث ومدنّس، بتّ أتفادى الاقتراب من زملائي في الدراسة، بتُّ وحيدة، ومنذ ذلك الوقت تلاشت ثقتي بنفسي وبمن هم حولي، بتّ أمقتّ كل الناس.

حينما وقعت عيني على الجريدة عادت أمامي كل الصور، تراءت لي على شكل فلاشات متتالية. صوري لما حاولت أن أقاومه وصوّر كتم أنفاسي براحة يده البدينة وصوري وأنا مرعوبة. تكتمت لحظتها عما حصل معي خشية رد فعل والدي العنيف وانقلاب أمي عليَّ، بتقريعاتها وانتقاداتها اللّاذعة، كنت أعرف مسبقًا أنَّها ستحملني المسؤولية كاملة وستحوّلني كعادتها معي من ضحيَّة إلى مذنبة، لذلك فضَّلت الصمت والانزواء على ما سبباه لي من آلام نفسية ظلت طيلة عقود كجرح مفتوح عجز الزمن عن تضميده.

كنت ممددة على سريري، تصلني جلبة مينوش اللّعين، حاولت النّوم، غطيت وجهي باللّحاف. استمرت الفوضى، بدأت في التقلّب، مرّة أرقد على ظهري وطورًا على جنبي الأيمن أو الأيسر وأخرى على بطني، كنت أنتقل من وضعية لأخرى. طوال الوقت لا يتوقف جلال عن ملاعبة قطه اللّعين، ويظلّ يحادثه كأنّهما رفيقان يتسامران، وأنا لا أستطيع النوم. مللت من التقلب والانتقال بين كل وضعيات الاضطجاع.

الأمر على النحو يفقدني أعصابي، من شدّة الغضب بدأت الشّتم.

نهضت من السرير، شعرت بآلام في رأسي. مشيت إلى المطبخ، أخذت حبّة دوليپران من العلبة، ابتلعتها مع كوب ماء ثم مشيت صوب المرآة. تأملت نفسي لبرهة، كنت أتفحص وجهي وجسمي، كأن أكثر ما أقلقني كان شعري، كوّمته عند ذروة رأسي، تأملته في تلك الوضعية ثمّ أفلته مرة أخرى، وبمجرّد أن سقط فوق كتفيّ، ابتعدت عن المرآة ومشيت عائدة إلى السرير.

عقارب الساعة الآن تشير إلى الرَّابعة إلا ربع وأنا أفكر في سلطان النوم. الزمن يمضي وأنا مستيقظة، غارقة في الهواجس وأحلام اليقظة.

أغمضت عيني وغمست نفسي في ظلمة الغطاء. فتحت عيني تحت الغطاء، لأجد الظّلمة أعمق مما كانت عليه. تركت جسمي متيبسًا وكأنّه تجمّد، بقيت ممددة على جنبي وظهري للحائط. مضى وقت طويل وأنا في تلك الظّلمة. بدأ رأسي يؤلمني. حاولت أن أبقى غافلة عنه، تحملت الأوجاع. لا أستطيع أن أنام. يفترض أن أكون نائمة من ساعات.

الوقت الآن الرَّابعة وسبع وعشرون دقيقة، أشعر بثقل في جفنيَّ ولا أكاد أميّز صوت مؤذن مسجد الباي، أو يرجَّح أنَّه يُخَيَّل إليَّ.

10

بالكاد أقوى على النُّهوض. مددت يدي لالتقاط الموبايل، لم أعثر عليه، تحسست الأرضية قرب السَّـرير بأصابع يدي اليسرى، لا جدوى. حاولت مرة أخرى، غيّرت مكان البحث إلى أن أحسست بأصابعي وسط الظَّلام وهي تتلمّس السّـطح الأمامي للموبايل، أخذته من أسفل السرير من دون تردد، قربت الجهاز إلى وجهي، ضغطت على لوحة المفاتيح، الضّوء المنبعث من الشّاشة أعمى عيني، لم أتبيَّن أي شيء عدا خطوط مضيئة، حاولت فتحه مجددًا والتحديق بأرقام الساعة. يا إلهي إنَّها الحادية عشرة وربع.

نهضت مذعورة كعادتي، أزحت الستائر وفتحت النّافذة على مصراعيها. السماء مظلمة ومكفهرة، أكره هذا الجو، يشعرني بالاضطراب والغثيان.

حينما كنت غارقة في إزالة الصابون عن وجهي، سمعت الضجة التي أحدثها اصطدام برسيان النافذة بالجدار، جففت وجهي بالمنشفة، واتجهت صوب المطبخ. صرير الرّيح لم يتوقف، ولما هممت بغلق النافذة تساقطت حبات مطر. بقيت مسمرة في مكاني، لم آتِ بأيّ حركة. ثم رويدًا رويدًا أصبحت غزيرة كسيل جارف بدأ يحمل معه القارورات البلاستيكية الفارغة والأكياس والعلب وبقايا الأشياء المرمية على الطرقات والأرصفة كيفما اتفق. ليته يحمل معه ما يثقل روحي، ويغسل ما علق بي من آثام ومثالب ويطهّر قلبي من آلامه ومواجعه المزمنة.

ما هي إلَّا لحظات حتى توقف المطر وبدأت الشمس تزاحم تلك الغيمات التي حجبت من قبل أشعتها إلى أن هبّت نسمات عليلة، تنفست معها الصعداء وفي هذه الأثناء شعرت براحة واطمئنان يغمرانني لأنَّ تلك النسمات لطَّفت مناخ المدينة الذي خنقته الرطوبة لأيام طويلة.

وقفت أمام المرآة، حدقت في صورة جسدي المنعكسة على واجهتها، أمعنت في تفحصها، يا إلهي بطني مترهلة جدًا، ووجنتاي منتفختان. أصبح وجهي على شكل دائرة أشبه بالبالون المنتفخ. تراجعت للخلف وانحنيت قليلا. فستاني لم يخف التكتلات الدّهنية المحيطة بخصري، مرة أخرى أنحني أكثر إلى الأسفل ثم أقوم برفع فستاني قليلًا، يبدو لي أن هناك دواليَ جديدة ظهرت على أوردة ساقي اليمنى.

لا ألبث أن أفتح علبة مساحيق التجميل، أمرّر بعضًا منها على وجهي وبالضَّبط فوق البثور والتَّجاعيد التي بدأت تغزو وجهي. ضاعفت سرعة حركاتي إلى أن فتحت الباب وخرجت من دون التمهل حتَّى لشرب فنجان قهوة.

لما أخرجت المفتاح من ثقب الباب والتفتُّ، وقع نظري مباشرة على القط مينوش وهو ينظر إليَّ بكبرياء، كأنه صاحب البناية وأنا مجرد نزيلة عنده تأخرت عن سداد ثمن كراء الشَّقة.

كلما كنت أتعثر فيه، ألعنه وأقذفه بأيّ شيء قريب مني، أو أركله بأقصى قوة تسعفني بها قدمي اليمنى. لا أعرف كيف يتحمَّل جلال ارتماء مينوش عليه دون أن يزجره أو ينزعج من سلوكه المقزز.

كلما ألمحه يلحسه بلسانه اللزج والرطب أشعر بالغثيان وتجتاحني رغبة شديدة في التقيؤ. كنت لمجرد رؤيته تعتريني حالة انقباض شديد ويستحيل مزاجي إلى الأسوأ، أصبح لحظتها عنيفة وينطق لساني بأقذع البذاءات وتخرج من فمي أسوأ الأوصاف، وسلوكياتي

غير متوقعة تمامًا إلى الحد الذي يجعلني آتي بأفعال وممارسات تعجز جميع الشّياطين المفكوكة عن الإتيان بمثلها.

منذ أن ورطنا جلال الجورناليست بهذا القط الملعون، وأنا لم يهدأ لي بال، فهو يعتني به ويرعاه بعد أن رآه على سبيل الصدفة ذات ليلة يرتعد ويرتجف من شدة البرد والجوع.

حدّقت في المكان، كنت أنظر في كلّ الاتجاهات، لم أرَ أحدًا، الفرصة جد مواتية. أمسكت القط بقوة. رفعته مكرهة ومتقززة من فروته الكريهة. ومن دون انتظار رجعت على عقبي. في المطبخ، أخرجت الطّنجرة الخزفية من العلبة الكرتونية، وبحركة سريعة سحبت كيسًا من مجموع الأكياس البلاستيكية التي أحتفظ بها بعد كل عميلة تبضع كي لا أضطر لاقتناء أكياس القمامة. وضعته في الكيس، ثم في العلبة الكرتونية بنية اللّون. فتحت الباب وخرجت مرَّة أخرى. من المستحيل أن أصدق، بالكاد عدة ثوان وانتهى كل شيء. دون أن يلحظ أحد!

مينوش اللّعين لا يعرف أين سيؤول به الحال. كنت لحظتها في سعادة لا توصف، أخيرا اهتديت إلى الطريقة المثلى التي أتخلص بها نهائيًا من مينوش، لماذا لم أفكر بها من قبل؟ لو فكرت بها لكنت جنّبت نفسي عناء تحمل هذا القط البائس كل تلك الفترة.

لم يكن ممكنًا أن أقف طويلًا أو أن أحتفظ به في شقتي، نظرت من حولي مرة أخرى، حتَّى إنَّني من شدَّة الرَّهبة كنت ألتفت يمينًا وشمالًا بشكل آلي، وعندما اطمأننت أنَّ الطريق آمن، آخذت العلبة الكرتونية ومضيت بعجل دون أن ألوي خلفي، مباشرة إلى ورشة ترميم أوتيل بلازا، حيث سمعت وشاهدت فيما سبق شلَّة من الأطفال يبرمون صفقة بيع ثلاث قطط لمجموعة من عمال الورشة الصينيين.

طوال الطريق كنت مرتعبة وأتساءل في قرارة نفسي: ماذا لو اكتشف أمري؟ في الطريق كنت حذرة إلى أقصى الحدود من

اكتشاف أمري، ومن البرك المائية التي تشكلت بعد توقف المطر. وقتما كنت أتنقّل من مكان إلى آخر، كنت أفكّر في أهم السُّبل لتجنُّبها، مع الحالة التعيسة للأرصفة والطرق، كنت أقفز بحذائي المتهرئ متجاوزة تلك البرك الموحلة والمخادعة التي تتشكل في الحفر والصدوع والشقوق، كي لا تتفاقم حالته المزرية، وأنجو به من خطر التلف التام، وأنقذ قدمي وجواربي من التبلُّل والرطوبة قبل بلوغ مقصدي.

لما وصلت، اقتربت بضع خطوات، لاحظت أحدهم يخرج، بمجرد ما لمحت عينيه الضَّيقتين شبه المغلقتين، تقدمت منه، وبدأت أردد: «كات... .. Catكات Cat ....آن شا Un Chat.. آن شا... Un Chat..».

مباشرة وبدون أن يفكر أو يتكلم أو ينتظر لحظة زمن، دس يده اليسرى في جيب بنطاله، إلى أن غرزها في عمقه واخرج قطعة معدنية، وضعها في راحة يدي.

سلّمته العلبة.

ولما قفلت راجعة فتحت راحة يدي، انتبهت إلى قيمة القطعة النقدية 200 دج.

وضعتها في حافظتي الجلدية، تنهدت وعلت وجهي ابتسامة عريضة. وأكملت طريقي صوب البناية التي أعمل فيها، كأن شيئا لم يحدث.

11

توقفت بنا سيارة الأجرة في عين عشير، عند الطريق التّرابية، ثم أكملنا صعودًا إلى مرتفع تَحفُّه شجيرات صغيرة. من حين لآخر كانت تظهر مرتفعات من الصخور وسط الخضرة، كلَّما كنا نتقدم أكثر، كانت تتناهى إلى أسماعنا أصوات الطبول والأهازيج الصوفية والزغاريد بشكل أوضح، كأنَّها ترشدنا إلى الموقع الذي كنَّا نقصده. واصلنا صعودنا إلى أن ظهر على يميننا سطح البحر، تعانقنا زرقته السماوية وتلفعنا نسماته الشتوية.

تقدمت زُبيدة الشوّافة عني ببضع خطوات، كانت تمضي قدمًا ولا تلوي خلفها إلى أن اختفت عن ناظريَّ. لم أنتبه إليها، فكنت ألتفت شطر البحر وأصيخ السَّمع لموجه الهادر مع الأصيل. لـــمَّا وجدتُني وحيدة، شعرت وكأن خطواتي أضحت ضائعة وتائهة في هذا الدرب المتشعب والمتشابك.

غير بعيد، ظهرت لي بناية بيضاء سقفها مقوّس الشكل ومطليٌّ بالأخضر، تحتوي على نافذتين مسيجتين. واصلت المشي، لمحت طفلين يلهوان وسط المزارات. وجدت زبيدة تلتقط أنفاسها هناك عند القبّة وقد أخبرتني بأنّنا في مقام سيدي عبد النور. بابه أخضر اللون، مغلق، لكنّه يُفتح من حين لآخر، لم أتجرأ على الدّخول. هناك فقط نسوة يدخلن أو يخرجن من حين لآخر. لمحت امرأة سوداء البشرة ترتدي قندورة حمراء اللون، ربطت رأسها بمحرمة خضراء وفي يدها شموع وآنية. لا يمكن معرفة سنّها بالضبط، تبدو بين نهاية

الأربعين ومنتصف الخمسين، طويلة القامة، تسير الهوينى، بوجه غريب على نحو ما، وأنف معقوف، وعينين واسعتين. كانت تتوقف عن المشي في أكثر من مرة، وتظلّ واقفة دومًا وامرأة تهمس في أذنها. شعرها مقصوص، غطت نصفه بتلك المحرمة، فهمت من زبيدة أنَّهن كنَّ يحضِّرن وجبة العشاء. وأنَّ تلك المرأة هي العريفة.

في حين كنت أرقب المرأة بطرف عيني، تناهت إلى سمعي كلمات تفوَّه بها شاب يرتدي قميصًا أخضر اللون مخاطبا رفيقه: «هيا أسرع.. جهز لفافة الحشيش..». استغربت قيامهم بالأمر داخل مقام الولي!

إذّاك، ابتعدت عن الساحة الصَّغيرة المقابلة للمقام. قبل الدَّرجات لمحت شابًّا ملتفتًا بظهره وهو يلُّف سيجارة الكيف! وبينما كنت غارقة في استغرابي، اقترب مني فتى مراهق، يبدو أن عمره أقلُّ أو أكثر بقليل من السابعة عشرة. ثم بادرني من دون تحية أو حتى أدنى مقدمات: «تعجبينني وأرغب في الخروج معك..». من شدة استغرابي ودهشتي مما تفوَّه به، ضحكت وتأملته لحظة زمن كأنَّني عاجزة عن الرد عليه. ثم أردفت: «هل تعلم أنَّك بسن ابني..»! لاحظت أن مجموعة من الفتية كانوا يعاكسون النسوة والفتيات بشكل فج.

ما كان مني إلَّا أن واصلت التَّقدم باتجاه المغارة، أين كانت الزردة. مقابل المغارة، كانت هناك بطحة كبيرة، توزع فيها الزُّوار فرادى وجماعات. أما داخل المغارة المزدحمة على غير ما كنت أتوقَّع، فقد جلس الزُّوار جنب بعضهم بعض؛ شيوخا وعجائزَ كهولًا وشبابًا وأطفالًا... بينما اتخذت موقعًا للجلوس، انضمت زبيدة الشوافة على يميني مباشرة، وهناك امرأة شابة إلى يساري، بدت في منتصف ثلاثينيات عمرها، وكانت ترتدي معطفًا غير سميك، ذا ياقة من الصوف. ولـمَّا لم يكن لديَّ ما أقوم به في تلك اللحظة، بدأت أتفحصها من زاوية عيني. وجدت أنها تمتلك وجهًا جميلًا، ونظرة واثقة، فاكتفيت تلك اللحظة بمراقبتها وتأملها، ولما انتبهت للطريقة

التي كنت أحدق بها إليها، بادلتني النظرة بابتسامة غامضة. أشحت بوجهي عنها وأنا مرتبكة وبدأت في تأمل من هم حولي من الجهة الأخرى، فلمحت الشيخ معيوف عزارنية وقد كان معصَّب الرأس ويضرب على الدربوكة، وشاب آخر يضرب على الطَّبل، وهناك من كان يستعمل الدُّف، وهم محيطون بصينية فوقها الكعك والقهوة، وقفة سعف على شكل صحن مليئة بالأوراق النَّقدية من فئة ألف وألفيْ دينار. وقد أحضر شاب آخر صينية إضافية، كان يحملها بأناة قبل أن يضعها فوق المائدة، وينصرف.

وفي هذه الأثناء سمعنا صراخًا وعراكًا خارج المغارة. لما تعالى الصَّخب، خرجت لاستكشاف الأمر. لمحت مراهقين متشابكين، وهناك من يحاول فكهما عن بعض. تعالى السّب والشّتم مجددًا. وعلى حين غرة أخرج أحدهم خنجرًا، ضغط على الزّر، خرج النَّصل من المقبض، بلغ طوله تقريبا خمسة وعشرين سنتيمترًا. ابتعدت مسافة أمان رفقة بعض العائلات خوفًا من تأزم الوضع إلى ما لا يحمد عقباه، فهؤلاء الصّيَّع، المتشردون لا يؤتمن لهم جانب.. هنا خرج الشيخ معيوف عزارنية للحيلولة دون إفساد الزردة واختلى بحامل السّكين الذي لم يحرِّك ساكنًا، يبدو أن مظهر الشيخ قد هاله، إنه رجل ضخم البنية كالدبّ الروسي وله لحية بنيّة اللّون يغشاها بعض الشيب. بعد أن ائتمر الطفل المراهق بأوامره، ضحك ضحكة ساخرة من شدة عجزه واقتناعه بانعدام كل السبل أمامه، كشف عن أسنانه الصفراء، ضغط على الزر، فدخل النّصل في المقبض، ووضعه في جيبه.. هكذا استوعب الشيخ العراك كأنّ شيئًا لم يحدث.. غادر المراهقون المكان واستؤنفت الزردة.. بدأ العزف بالمزْود والدربوكة والصاجات أو القرقابو والطبل وبدأ الحضور يخرجون لحلبة الرّقص تباعًا..

وبينما نحن جلوس إذ دخلت علينا فتاة شقراء بشفتين منتفختين، ترتدي بلوزة قصيرة بنية اللّون، وذات مؤخرة منتفخة برازيلية،

وخلخالها يعلو كعبها الأيمن، جعلت الحضور مشدوهين بعجيزتها المكوّرة بشكل بارز. كان البعض يلتهمها بنظراته، حتى بعض النسوة كنَّ يستغرقن في تأمل جسدها حين تمرَّ بالقرب منهن، كأنَّهن كنَّ يجردنها في خيالهنَّ من تنورتها القصيرة جدًا.

اختارت مكانًا قريبًا من الشيوخ، أين وضعت نارجيلة بين صديقاتها. لما جلست ارتفع ثوبها إلى فخذيها.. كانت التنورة مشدودة للغاية للأعلى. لمحت الشيخ معيوف عزارنية ينقل نظره من موضع إلى آخر، على امتداد الجهة التي جلست فيها الفتاة، ثم شاهدت امرأة ترتدي غطاء الرأس على يمين الفتاة شبه العارية، تسحب بذراعها ستارًا، وتضعه على ركبتي الفتاة، في حين أن الفتاة المقرفصة لم تبد أي رد فعل. لـحظة بدأت وصلة جديدة من العزف بالنَّاي والبندير، داعبت أنفي رائحة لوداد ولوشق.. انتبهت للشيخ وقد غيَّر لباسه وارتدى جلابية بيضاء، وبدأ يضرب بعصاه وسط الزَّغاريد والضَّرب على الدُّفوف والأكف. وبينما ازدادت الضَّربات بقوة برزت امرأة بخمار وردي، بدأت تتهوَّل، ثم نزعت خمارها وقد ارتدى كل الشيوخ الأبيض ثم وقفوا كلُّهم. دخلت النّسوة تباعًا لحلبة الرَّقص متحلقات وملتفات حول تلك المرأة، ودخل معهن رجلان في التّهوال على وقع الناي وتسارع ضربات البندير وصيحات الشيخ.. الأجسام لم تتوقف عن الرَّقص والزَّغاريد، بدأت إحداهن بالصُّراخ كأنَّها ممسوسة.. وانضمت إليهن البدينة التي ترتدي الأسود. ثم انسحبت وهي مغشيا عليها. أما المرأة الأولى فقد كانت تصرخ ثم دخلت في نوبة بكاء.

وقفت الشّقراء وهي على أهبة المغادرة، في أثناء مشيتها كان كل من بالمغارة يتبعها بعينيه. المغارة كلها ارتجفت لها كأنّ زلزالًا رهيبا ضرب النّفوس، زلزالا دكَّ قلوب الشّـباب الحاضرين.. نظرت غاضبة متبرمة من تلك العيون التي لم تفوّت شيئًا من البحلقة إلى تينك السَّاقين والفخذين. خرجت الشَّقراء ولم تعد.. كأن الأرض انفتحت وابتلعتها. لحظتها انضمّ بعض الشّـبان المخنثين للتهوال. ثمّ

بدأت أصوات الشيوخ في المديح والأهازيج الصّوفية. نظرت بعيدًا للحظة وقع نظري على شيخ مخنّث كان يجلس في زاوية المغارة، كان يملك أذنين عظيمتي الحجم وشفتين منتفختين وكان له رأس صغير على شكل بيضة، كان يتكلم ويحرك يديه، لم يسبق وأن رأيت شيخًا مخنثًا! ثم أُدخل كانون الجمر لتسخين البنادر.. وتوقفت وصلة التَّهوال مرة أخرى.. وما لبثت أن بدأت وصلة جديدة بالبنادر والنّاي. نسوة يتهوَّلن، إحداهن ماسكة قطعة قماش حمراء بعيدة عن الجمع. كانت تتهوّل كالمجنونة وتصرخ بأسماء الأولياء. ورجل يمسك خصر إحداهن من الخلف وهي تتهوّل وعلى رقبتها قطعة قماش زرقاء اللون. وبعد هنيهات أضيفت لها قطعة خضراء طلبها الرّجل الماسك بخصرها.. رجل أشبه بدرويش دخل معهن النّوبة، يلبس البياض، ورأسه مغطى بقبعة جلابيته، لا يكاد يُرى وجهه.. دخل الشّيخ في نوبة تهوال متوغلا بلطف، إلى أن بدا كالممسوس وعلى رقبته محرمة حمراء اللّون، رمى عصاه وبدا كأنه في عالم آخر... إلى أن همد ثم تحرك مجددا على وقع الضّرب المتسارع للبندير والعزف المتسارع للناي وصيحات الشيخ: «الله.. الله يا سيدي عامر..». وبدأ الشّيخ يقفز ويحرك رأسه يمنة ويسرة كالمخطوف ومعه امرأة على رأسها وشاح غطى شعرها وكامل وجهها، وقد ظهرت على رقبتها شامة سوداء ليست كبيرة.. والشيخ من حين لآخر يرمي بقطع الجاوي إلى الكانون.. ولما توقفت الوصلة بدأت إحداهن تهتز وترتجف وتلطم وجهها، عندها طلب الشيخ من عازفي النَّاي والبنادرية استئناف الوصلة خصيصًا لها.. كي تتطهر كلّية من الأذى، كما همست في أذني زُبيدة الشوّافة.. ولم تتوقف الوصلة حتى هدأت الفتاة وهمدت مغشيًا عليها، كأنّها جثة.

ومع وصلة أخرى، بدأت امرأتان في تحضير صحن الحناء، ثم نقلنه إلى زاوية بالكهف عليها الشّموع. بدأتا في طلي واجهتها بالحناء، وبقيتا على هذا النّحو إلى أن كادتا أن تفرغا كامل محتواه..

ثم حملت إحداهن الصَّحن وبدأت تمرُّ على النّاس وهم جلوس وتطلي أكفهم على شكل قرص... رأيت الشيخ معيوف عزارنية، وهو يغني خلف الصّينية، كان واقفا في الوسط ويحافظ على الإيقاع بيده، وكان بين الحين والآخر يقوم بحركات. كانت تجلس خلفه مجموعة أخرى من الشيوخ، كان يوجد عازف النَّاي على شماله، وعلى يمينه شاب يضرب الطَّـبل. كان الشيخ يستحيل إلى شخص آخر عندما كان يغني. كان يغمض عينيه ويفتحهما، ووجهه يسترخي وينكمش وكأنَّ الموسيقى تحمله إلى مكان آخر.

طلبت مني زُبيدة أن أكلِّم المرأة سوداء البشرة العريفة، ذهبنا برفقتها إلى مقام سيدي عبد النُّور، تمتمت العريفة بالأدعية وهمست في أذنها بحاجتي كما كانت الأخريات يفعلن بين الحين والآخر.. وضعت في يدها اليسرى صورة جلال.. وبعد ساعات قدمت لي قطعة قماش صغيرة حمراء، دسستها في حقيبة يدي، ودسست في صدرها ورقتين من فئة الألفي دينار، من دون أن أنبس بكلمة.

بين الحين والآخر كنت أغرق في التّحديق في تعرجات والتواءات سقف الكهف، ففي أعلى المغارة، كانت هناك حبال، علقت عليها قطع من القماش، بألوان مختلفة، خضراء وحمراء وزرقاء ومخططة وبيضاء، يتوسطها العلم الوطني. كنت أسبَح في تهويمات وخيالات لا نهاية لها إلى درجة إنّني كنت أنقطع عمّن هم حولي، وعن العزف ولا أكاد أشعر بأيّ شيء.. كما كنت من حين لآخر استرق بعض النّظرات لثلّة من المخنثين انتبذوا مكانًا خاصًا بهم، لا يبعد كثيرا عن الموقع الرئيسي للشيوخ، أين وُضعت مائدتان عليهما كل الأطايب والحلويات. لم يمنعني التَّفكير في ذكريات موجعة وحزينة لا أرغب في تذكرها، اقتحمت عليّ جلستي من دون سابق إنذار، من أن أتلصص على طريقة كلامهم، وعلى ألوان لباسهم الفاقعة، والتصاقهم ببعض إلى حدّ الالتحام، وتمايلهم وتلويحهم بأكفهم لحظة الكلام، وتبرجهم وزينتهم المبالغ فيها. كلّ هذه الأشياء وأكثر، كانت

تثير فضولي واستغرابي وتبرمي واستهجاني، حتَّى إنَّني كنت أشعر بحالة من التهيُّج الداخلي بين الحين والآخر، وكنت اجتهد في ألَّا تلحظ عليَّ زُبيدةُ ذلك.

وعندما قررت أخيرا الوقوف والتقدم إلى محور المغارة أين كانت عجوز وشابة ترقصان بحماس ظاهر، وبالضبط فكرت في الاتجاه صوب حيّز مريح بالنسبة إليَّ على أضعف الإيمان، لأنَّـهما تركتا مسافة كبيرة نسبيًّا بينهما، انتابتني حالة من التردد مشوبة بعزيمة، ودخلت في لحظة من التّناقض والغموض لم أفهمها. لكن لحسن الحظ لم تدم طويلا، حتى وجدتُني أرفع يدي للأعلى وأنحني وأتمايل بجسدي كتسخين أوّلي من أجل الدّخول تدريجيا في تلبسات التَّهوال الصُّوفي، أين انضمت إلينا نسوة أخريات وأخذن يرقصن بدون تناسق.

عندما تماديت في تلك الحركات وبعد مضي بعض الوقت، لم أعد أشعر تدريجيًّا بتفاصيل الأجساد الملتوية والمتمايلة من حولي ولم أكن أعلم بأنّني سأدخل في حالة من اللاوعي، كنت بالفعل أشعر بأنّني أفرغ شحنة عظيمة من أثقال مترسبة بداخلي، تراكمت عبر الزمن، أحسست كأنَّني أتطهر وأُشفى منها الواحدة تلو الأخرى رويدًا رويدًا.

كانت تنتابني راحة لذيذة لأنّني سأتخلص من كلّ هذا الحمل والدّرك الذي لازمني لفترة ليست بالقصيرة. أتذكر تماما انقطاعي وانفصالي عن كلّ شيء مادي، وغرقي في تلك اللّحظة والنشوة وإحساسي بانبثاق جديد من رماد ذاكرتي وهواجسي، كنت لحظتها أتمنى أن يتوقف الزمن، أو لم أعد أشعر بوجوده وأن تتمدد بي تلك اللّحظة إلى ما لا نهاية حتى أعيشها كلها بدون أدنى نقصان أو ضجيج أو تشويه.

كنت خائفة من الخروج من حالتي الجميلة وغير المتوقعة تلك، كنت منغمسة وغير مصدقة أو متصوّرة لما كان ينتابني أو كنت أعيش وأشاهد. لم يكن يعنيني أي شيء عدا الاستمرار في التَّلذُّذ والانتشاء.

انقطاع تام. إذّاك جلّ ما كان يحيط بي يتلاشى، كأنَّه يتبدد، ثمَّ يتحوَّل إلى مجرَّد خيالات تتحرك، تظهر وتختفي إلى أن تأتي لحظة مخيفة لا أكاد أدرك فيها: هل أنّني واعية أم غير واعية؟ انصرف زوار الحضرة وتركوني وحيدة، أم كل ذلك مجرّد هلاوس أو توهمات. ربّما يعود الأمر لكرامات وقدرات الشيوخ الخارقة، شعور بأنَّ شيئًا ما قد تلبسني، أو روح أخرى تسللت إلى داخلي، لست أدري إن كانت خيّرة أم شريرة! ثم في لحظة ما، انقطاع مطلق عن عالم النّاس والأشياء، إنها اللّحظة التي كنت أتحرر فيها من العتمة والوحدة والكرب والخوف والفزع والغم. نور يغمر روحي إلى أن تعتريني قشعريرة لم أعهدها من قبل، لذّة وحلاوة امتلأ فيها قلبي بالسّكينة والسّلام والسّعادة الغامرة. وفجأة غبت عن الوعي تمامًا ولم أعد أتذكر أيّ شيء حتّى شعرت بضربات كف خفيفة على وجهي، لما فتحت عيني بتثاقل كنت أرى خيال وجه غير واضح الملامح والهواء الحار لأنفاس تنبعث من ثقبتي أنفه، وخطوط العرق تسيل من صدغيه. إنه الشيخ معيوف عزارنية، لم تختلج عضلة واحدة في وجهه الرصين، ومن خلفه كانت زُبيدة الشوّافة تتطلع إليه بنظرات متسائلة، تومض مقلتاها بشدَّة في البقع الدَّاكنة لمحجري عينيها.

في تمام العاشرة وخمس عشرة دقيقة ليلًا وصلت إلى الشّقة، بالكاد كنت أقوى على الوقوف، شعرت بضغط مؤلم على باطن قدمي اليسرى، قبل أن ينتقل الثّقل من قدم إلى أخرى. ارتميت على السَّرير وجررت اللّحاف حتَّى كتفيَّ المصطكتين، بالكاد تمكنت من تغطية جسدي، أبقيت ساقي عارية تتدلى من طرف السّرير، ومع ذلك كان عليّ إغماض عينيّ كي أغرق ببطء في النّوم.

12

مع انتصاف الليل، ذهبت في نوم عميق. شعرت أنّ هناك شخصًا يهزّني ويقول بصوت غليظ: «هيا استيقظي.. هيا استيقظي.. هيا استيقظي». لما فتحت عينيّ، كان مصباح الغرفة مضاء. لم أستطع أن أرى كامل ملامحه بشكل كاف، تسبب الضوء الكثيف في تشوّش رؤيتي. بعد هنيهة هالني منظر ذلك الرجل الذي يرتدي زيًا أسود، كان يشبه عبد العزيز سالمي بشكل كبير. كان يهزّني بعنف ويمسك بكتفي. من شدّة الهلع غمرني شعور بالعجز واليأس، لم أمتلك القدرة على البكاء وذرف الدّموع، لم أستطع حتى أن أصرخ، تكاد روحي تخرج مني.

نهضت مفزوعة من على السّرير، كان النّهار قد طلع. صرخت بأعلى صوتي. في نهاية المطاف تسلل ضوء الصباح، بيد أن ذلك الرّجل ليس هنا. ربما يكون قد ذهب أو اختفى أو مات! فهمت أنّني كنت طوال ذلك الوقت أحلم، كان كابوسًا مفزعًا.

من فرط الاضطراب جرّاء ما حدث توّا، رجعت إلى السّرير. وحالما أسندت رأسي إلى الوسادة حاصرتني التّساؤلات من كل الجهات: ترى لماذا ظهر لي زوجي السّابق في الحلم؟ ولماذا في هذا الوقت بالذات؟ وهل سيكتشف مقر إقامتي بعد كلّ هذه المدة؟ أم أنّ ذلك مجرّد هلوسة أو كابوس عابر؟ وفي تلك الأثناء عادت بي ذاكرتي إلى تلك الأيام التي لا أرغب في تذكرها. لقد جئت إلى زنقة الطّليان لأهرب من ذلك الماضي، من أطيافه ومن أشباحه، وها هو كلّ ذلك الماضي يلحق بي إلى هنا!

كنت في السّابعة عشرة ونيف وكان قد تجاوز الأربعين بقليل، يمتلك مظهرا لا يوحي بفارق العمر بيننا؛ لقد كان رجلًا مديد القامة، بادي الوسامة، له ثقافة وذوق في اختيار اللباس والكلمات، علاوة على ذلك كان يتميّز عن كل من عرفت بقدّه الممشوق وعضلاته القوية وصدره البارز وبطنه بدون كرش كبيرة.

حينما تزوجنا اكتشفت أمرًا صادمًا هدَّم كلَّ آماليَّ المنتظرة وأحلامي المتراكمة، وجعل حياتي تنتهي في بداياتها ثم تستحيل إلى معاناة متواصلة قذفت بي إلى الجحيم. كان حصانه هرمًا، لدنًا، متراخيًا، ولا يقوى حتى على الصَّهيل!

في البداية كان وقع المفاجأة قويًا ولم أقوَ على احتماله، لكن مع ظهور الحبة الزرقاء ذات المفعول السحري، لم أعد آبه لعجزه، ما صدمني هو أنانيته المفرطة ولا مبالاته بحاجاتي. لما كان يلتهم تلك الحبة، سرعان ما كان يسترجع حيويته ويستعيد نشاطه، كأنَّه محرك في أوج اشتغاله، فتسري الدّماء في عروقه ويحيا بعد موات وينبعث فيه ذاك الشيء من الرميم.

حالما تنتهي الدَّقيقتان أو الثَّلاث دقائق، حتى يعطيني بظهره وينام، ويتركني قاب قوسين أو أدنى من الوصول. يتعالى شخيره وهو يغطُّ في نوم عميق غارق في الأحلام. أما أنا فأبيت اللَّيل كلَّه في همّ وكرب. الأمر الذي جعلني نهبًا للقلق ومشاعر التَّوتر، كما أثر ذلك في علاقتي به، التي أضحت من سيئة إلى أسوأ، بعد كل سنة تمضي.

غالبًا ما كان زوجي السابق عبد العزيز سالمي، شكاءً بكاءً، لا يتوقف عن التذمُّر والشكوى من الصُّداع والقلق ومشكلات الهضم والمعدة... لا يتوقف عن التدخين والسكر، كما كان يجد الكثير من الوقت للحديث عن عيوبي وعن علاقتنا وعن المشكلات المحتدمة بيننا، أمام أفراد عائلته. لم نكن نفض الجدل بيننا بيسر، دومًا ما كان منغلقًا ويقابلني بابتسامته الباردة، وصوته عالي النبرة، مع اتساع حدقتي عينيه.

بعد زواجنا تحوَّل إلى آلة مجنزرة لا تفكر إلا في الدَّوس على كرامتي وكسر عظامي إلى أن تدمرني نهائيًا. أنا التي كنت له الزَّوجة الخانعة، القانعة، الرَّاضية، التَّابعة، حتى استحلت مع مضيّ الزَّمن إلى قطة وديعة، لم يرضَ بهذا الوضع إلى أن حوَّلني إلى هيكل بلا روح، فاقد لأي مشاعر أو كرامة أو آدمية. وكان جسمي يفنى في ذاتي وكنت أشعر بتعفنه مع كل إهانة. شيئًا فشيئًا أصبحت حياتي مع زوجي أشبه ما تكون بحبل رفيع يتآكل وينخر ما تبقى لي من حياة.

من المرجَّح أنَّه كان يهرب من عجزه خلف تلك السلوكيات. في ذلك الوقت كنت أكثر عزلة وعانيت التَّوترَ الحاد الذي أضرَّ بصحتي وتسبب لي في أشكال متعددة من الصُّداع. كما إن غضَّ عائلتي الطَّرف عما كان يحدث لي، جعلني أشعر بانفصام مع أيّ رابط عائلي ومع أيّ انتماء لقرية السوارخ ولمدينة الطارف ككل وبذلك ارتحت وتحررت.

السّاعة الآن تشير إلى الثّامنة إلا ربع صباحًا. بدأت تصلني من بين الجدران وشقوق النّافذة وفراغات أسفل الباب بعض جلبة الجيران. بالكاد كنت أسمعها. البنايات هنا متصدّعة ومتهالكة تسمح بتسرب الصراصير والجرذان والأصوات وكذلك بعض الأسرار. من بعيد هذا يتحادث مع ذاك في الشارع، وتلك تحرّك في المواعين لطهي حليب الفطور، وأخرى تُشغِّل الراديو، تصلني منه أنغام موسيقى وكلمات المالوف بصوت خفيض وعذب لأغنية راس الحمرا:

«راس الحمرا.. هياو أنزورو راس الحمرا..

يا ناس عنّابة ڤلبي في جمرة.

هياو أنزورو راس الحمرا..

يا لي يزورها يانا يفرح.. وتزول عنو الأغيار

يا لي مقامك على البحور...داويني يانا نبرى...».

وتلك يبدو أن ابنها الصغير كاد يسقط مغشيًا عليه من شدّة البكاء، وأخرى تتشاجر مع زوجها الذي تكاسل عن إحضار الخبز السّاخن من

المخبزة. ومن حين لآخر تلتقط أذناي بعض كلمات الشّـتم. ألقي برأسي تحت الشّرشف واضعة الوسادة فوق وجهي علّها تسد أذني. أغفو من جديد لبرهة زمن، في حين لما افتح شاشة الموبايل أكتشف أنّ ساعات قد مضت.

أقف مذعورة كالمخطوفة من السّرير رامية الأغطية كيفما اتفق. أمشي في الحجرة وأنا أتعثّر بجسدي المترنّح إلى أن أقف أمام باب خزانتي. أقلّب الملابس الموضوعة فوق بعضها من غير ترتيب وأنا أفتش بينها عن الفستان المناسب الذي سأرتدي اليوم. طبعًا ليست لديّ فكرة عن الموضوع وحالما تستقر عيني على الفستان البريك اللون، أعتقد أنّه مناسب، ثم لــمّا أرى طرف الجيبة العنّابي اللّون أغيّر رأيي في لمح البصر. من دون تردد أرتدي الجيبة مع قميص اخترته أبيض اللّون، كلّ يوم كنت أراه معلقا في المشجب ولم تأت فرصة ارتدائه إلّا الآن. اشتريته بعد موعدي الأخير مع الأستاذ جمال حيّاهم.

وقفت برهة زمن بجانب فراشي المنفوش، لا أنكر أنّني شعرت بالحزن والضِّـيق بعض الشّـيء، مشيت إلى المطبخ، حالما فتحت النّافذة لفعني بعض الهواء المنعش ولامست وجهي أشعة الشَّـمس. الأيَّام الرَّبيعيَّة لها متعة خاصة بالنّسبة إليَّ، خشيت على نفسي من الزّكام لأنّني نهضت للتو، رددت زجاج النَّافذة وواصلت مراقبة النَّاس من خلف الزُّجاج وبقيت أنظر وأنتظر.

استمرت أشعة الشَّمس تخترق فتحات النَّافذة. بعض الحركة في الأسفل. تنفست بعمق، تراجعت، لم أقم بأيّ شيء آخر، سوى أنَّني أسند ظهري إلى الجدار.

إنه يوم جديد.

13

يا لها من تجربة فظيعة، أن تكون الواحدة منا في قسم الاستعجالات، ملقاة على سرير حديدي متحرّك، وهي مغشي عليها.

وفي تلك اللّحظات قدمت طبيبة على عجل، من صوتها يبدو أنها في منتصف عقدها الثّالث، ثمّ لحقتها ممرّضة يظهر من رائحة عرقها ومن طريقة تنفسها التي هي أشبه بالشّخير، أنّها بدينة جدًا.

فحصتني الطّبيبة باهتمام ظاهر، لكنّ عينيّ لا زالتا مغمضتين وأنا فاقدة الوعي تماما.

حدث ذلك قبل منتصف النّهار عندما قصدت مكتب العمل في وقت متأخر، أعتقد أن السّاعة على موبايلي كانت تشير إلى الحادية عشرة وربع، كنت مرعوبة وخائفة جدًّا. وبحثًا عن منفذ من السَّاعات المخصومة من راتبي ككل مرة، والذي أثقل كاهلي بشكل كبير، وباتت ميزانيتي الشهرية لا تحتمله تمامًا. فكرت وفكرت، لم يكن أمامي الكثير من الوقت حينها، وأخيرًا اهتديت إلى مخرج. لما دخلت من باب المكتب، تظاهرت بالإعياء والوهن، بالكاد وصلت إلى مكتبي، ارتميت على الكرسي الدوار، ثم فجأة تظاهرت بأنّني فقدت الوعي.

كنت أسمع أصوات الموظفين وأشعر بحيرتهم وهلعهم وهم من حولي، ودون إضاعة الوقت أو انتظار لحظة واحدة، حملوني في سيارة وحيد ابن الأستاذ جمال حيّاهم إلى مركز العلاج المقابل لمقرّ

الولاية والمحاذي لزاوية العلاوية، فهذا المركز غير بعيد عن البناية التي يقع فيها مكان عملي.

كانت الطَّبيبة لحظتها، تارة تجس درجة حرارتي بوضع راحة يدها على جبهتي، وطورًا تُحيط معصم يدي بجهاز قياس الضّغط، ثم بإصبعي السَّبابة والإبهام تحاول بشكل مُنفِّر رفع جفن عيني اليمنى، مبحلقة في حدقة عيني وأنا مستسلمة لها بشكل كامل.

وهكذا جرَّبتْ كل الأجهزة واختبرتْ كلَّ ما تعلمتْه بكليَّة الطب على حالتي تلك. بينما أنا كنت أواصل التَّظاهر بالغياب عن الوعي وفقدان الصَّوت والحركة.

وهكذا بدأت الطَّبيبة تُدوّن بقلم أزرق جاف على وصفة طبية، كما رأيته رؤية العين لما استفقت فجأة، حينما شعرت بأكبر إهانة وجهت لي، بعدما سمعت سعاد زميلتي بالعمل تجيب الطَّبيبة عن سؤال طرحته، حيث أحسست لحظتها بأنَّها جرحتني من الداخل، وأنَّ إساءتها تلك نالت من كرامتي ومما كنت أفاخر به، مصدر اعتزازي وسموي بين معارفي، ربَّما كان هذا هو أسوأ شيء لم أتوقع أنَّه سيحصل معي وآخر ما احتملت حدوثه بهذا الشَّكل المخجل والمفزع في الوقت عينه.

يا إلهي حدث كل شيء عندما سألت الطَّبيبة بطريقة روتينية عن عمري، ودون أدنى تفكير أو لحظة انتظار بادرتها سعاد: «ثلاثة وأربعون».

كان ردها موجعًا ومفجعًا وصاعقًا!

لم أتمالك نفسي. ما أتذكره يومها هو أنَّني رفعت رأسي من شدة ما شعرت به من غيظ، ثم بالكاد فتحت عيني، ورددت: «أربعة وثلاثون.. أربعة وثلاثون، أربعة وثلاثون».

لاحظت أن جميع من كان واقفًا حولي، كانت بادية عليه ملامح المفاجأة والوجوم، من استفاقتي تلك واستعادة وعيي بشكل غير منتظر.

لم آبه لهم أو أهتم إطلاقًا بما سيفكرون به تجاهي، عدا أنَّني كنت مصعوقة من وقع كلمات سعاد على نفسي. يا لها من تجربة فظيعة هزت كبريائي وزلزلت كِياني من الأعماق، من الصَّعب عليَّ نسيانها أو الشّفاء منها، ومن هنا تنامى كرهي لسعاد وتعاظم حقدي عليها إلى درجة لا يمكن وصفها.

أصبحت أتفاداها وأتجنَّب الحديث إليها والاقتراب منها حتى وإن صادف وجمعنا مكان واحد. كما كنت أكيل لها التُّهم واختلق حكايات وقصصًا عنها كي أشفي بعضًا من غلي تجاهها ومما تسببت فيه من إساءة لي.

يعتريني إحساس بأنَّ الجميع يتعمَّد الإساءة لي، عن قصد ونيَّة مسبقة، سلوكهم تجاهي وكل ما يحدث لي لا مبرر له، لم أفعل ما يثير حفيظتهم إلى هذه الدَّرجة، وينمّي تلك الأمراض الدَّفينة في نفوسهم ويجعلها تطفو على السَّطح بهذه الصُّورة المقيتة.

لماذا دوما أنا المقصودة، لماذا يتعمدون إيذائي أنا بالذات؟

ما مبعث كل ما يجري لي أنا دون غيري؟

قلت لنفسي مرة أخرى: إلى هذه الدَّرجة بات وجودي يزعجهم، يا إلهي! دوما ما يتحيَّنون الفرص المواتية لتوجيه فوهات بنادق كراهيتهم صوبي، يطلقون عليّ نار أحقادهم التي تغذيها نفوسهم الصغيرة.

كنت أحدث نفسي وأحشرج إلى درجة أنّي لم أقوَ على التَّحمُّل. بدأت أنوح من شدَّة الألم بداخلي وأئن بصوت خفيض ثم سالت دموعي متدفقة من الأسى والأسف على ما حلَّ بي، تمخطت أكثر من مرَّة إلى أن انهرت لحظتها.

تبًا لهم، جعلوا مني مادة لسخريتهم.. يا إلهي! عانيت الكثير..

14

في اليوم الموالي، لم يحلُلْ وقت العصر بعد، حتَّى خرجت من مكتبي، على الرَّغم من أنَّني لم أكمل دوامي بعد. فمنذ رجوعي من استراحة الغداء لم يدخل زبون واحد إلى المكتب، وجلّ الالتزامات السّابقة والملفات فرغنا من العمل عليها قبل يومين.

نزلت من درجات سلّم بناية المكتب الذي أعمل فيه باتجاه سوق الحطّاب مباشرة، للتسوّق قليلا. لما دلفت بوابة السّوق، تجوّلت في أروقته، وبدلاً من البقاء في قسم الخضروات واقتناء ما يلزمني، ذهبت إلى قسم اللُّحوم من أجل الحصول على شريحة لحم خروف لذيذة ونصف دجاجة ثم بدأت باقتناء التّوابل والزّيتون الأخضر والبنفسجي والأسود، الكبير منه والصّغير، وكذلك الفلفل والجزر والخضر المرقّدة في الماء والملح، وهكذا دواليك. لما هممت بدفع ثمن مقتنياتي انتبهت للبائع وهو يرمقني بنظرة غريبة.

وعندما كنت في طريقي للخروج حاولت مضاعفة سرعتي، عبرت المحلّات المحاذية للسوق والتي كانت تغصّ بالنّاس. ولحظة اقتربت من محور دوران الحطاب، لم ألبث وأن توقفت فجأة لـــمّا وقع بصري على سبيل المصادفة على شاب يدفع عربة فواكه، وبقيت جاثمة في مكاني، لا أُحرِّك ساكنًا.

يا إلهي إنه نزيم...!

ابني...!

أنا متأكّدة بأنّه هو بشحمه ولحمه.

لست واهمة، أو شُبِّه لي، إنّه نزيم.

ملامح وجهه ذاتها، صوته عينه، عدا بحّة طفيفة استجدت، واسمرار ظاهر في لون بشرته.

من بعيد أقف مشدوهة من دون حراك أمام نزيم وهو يجرُّ عربة خشبية بعجلتين وينادي المارين بأعلى صوته: «ياو الشينة حلوة وبنينة... ياو التفاح لي يشريه يرتاح...ياو... ياو... ياو...».

بقيت عاجزة، تابعته من بعيد وهو يبدأ في دفع عربته إلى الأمام من جديد، كنت أرقبه وهو يغرق في زحمة الأزّقة والطّرقات المحاذية لسوق الحطاب وصولًا إلى محطة كوش، اجتاز موقف سيارات الأجرة مرورًا بمحلّات ومتاجر الشاند مارس، إلى أن توقف مرة أخرى بالقرب من الحديقة العمومية المقابلة للمدرسة الابتدائية ماكس مارشون، والتفّ به جموع من النّاس حتّى اختفى عن دائرة رؤيتي.

لم يظهر لي إلاّ جمهرة النّاس وهم يتسابقون للظّفر باقتناء كيس فواكه. ها قد ظهر لي مجددًا، يمتلئ حيويةً ونشاطًا، وهو يناول هذا ويقبض المال من ذاك ويضع الفواكه في الميزان لآخر ويفرغ الكفّة في كيس لغيره، وهكذا كنت أستمتع بالتّلصص عليه.

يبدو أنه يعمل طيلة أيّام الأسبوع، عدا الجمعة إذ تغلق كل المحلات وتتوقف حركة النَّاس وتستحيل جلُّ الأمكنة إلى مقابر خالية من الزُّوار.

يا إلهي، يظهر فجأة شاب ثخين وغليظ المنكبين، ويبدأ في مضايقته! يوقف عربته على مسافة قريبة من عربة نزيم، يحاول أن يزاحمه على الظّفر بالزبائن، علاوة على استمرار المجادلة والملاسنة بينهما. ينظم أصحاب عربات أخرى للتنافس على المساحة المحدودة، تشتد الملاسنة بين الجميع بعدوانية، حتى بعض الزبائن ينتفضون ويرغون ويصرخون بسبب النّوعية تارة، وبسبب الأسعار طورًا آخر، وبدون أي داع في غالب الأحيان.

بينما يتواصل اللَّغط ويستمر الجدال وتتعالى الأصوات، تصبح الكلمات تصلني غير مفهومة وغامضة وغير واضحة. كان هاجس داخلي يحدّثني بأنّه ليس لديّ ابن، كما لم أعد أتذكر إن كنت أمًا في مرحلة ما، هل فقدت عقلي؟ ولم أعد أتذكر أي شيء عن حياتي السّابقة أم أنّني لا أرغب في التّفكير بالأمر برمته، لا أرغب بتاتًا في تذكر الماضي، نار مستعرة في داخلي، تلك الذّكريات بمثابة موس يخترق لحمي ويصل إلى حد العظم.

لم أرغب في إنجاب أطفال ولم أرِد في يوم من الأيَّام أن أصبح أُمًا. لم أرغب في الأمر منذ الصّغر ولم أغيِّر رأيي كما كانت تتنبأ أختي وهيبة وهي تحدثني عن أن تفكيري سيخلق لي الكثير من الخوف والمتاعب في المستقبل.

كانت تردد دوما: «سوف تغيِّـرين رأيك».

كيف يمكن لشخص أن يعرف تفكيرك أفضل منك؟ أنا واحدة من النساء القلائل جدًا، اللواتي لم يرغبن في إنجاب الأطفال، بدأت أشك في الأمر، وبدأت أتساءل ثم أدركت أن ذلك ناتج عن الضغط الذي تعرضت له بعد أن جاءني دم الحيض أوّل مرة في طفولتي وما تعرضت له لاحقًا في الإكمالية على يد المراقب العام، وما تلاها من أحداث ليلة الدّخلة. الأحمر القاني، لون الدم، كان يفزعني ويزيد من هواجسي.

ليس ذنبي ظهور نهديّ ينموان في سنِّ العاشرة، كنت وقتذاك خائفة من رؤيتهما يتكوران وينتفخان بشكل ظاهر، لم أتمكن من إخفاء توثبهما. لا دخل لي في أنّ الحيض جاءني قبل الثّانية عشرة، هل أنا من يتصرف في غددي وهرموناتي؟ لست المسؤولة عن النّمو المبكّر لجسدي وتطوره بشكل مفاجئ. كنت مشدوهة وخائفة من نمو الشّعر على عانتي وفي إبطيّ.

كنت خائفة ومشوشة عندما جاءتني الدَّورة الشهرية أوَّل مرة وظننت أنني ارتكبت خطأً ما. كنت مرعوبة من جريان الدَّم على

فخذيَّ، كنت خائفة في البداية من أن أخبر أمي حول ما حصل معي، شعرت لحظتها بالارتباك والخجل ولم أعرف إلى من ألجأ، إلَّا أنَّني ذهبت في النّهاية إلى خالتي أم الدلَّال وحدثتها عن الأمر، كانت الشخص الوحيد الذي أعتمد عليه عندما أكون بحاجة إلى مساعدة. أتذكر أنني كنت مذعورة، لأنه لم يخبرني أيًا كان من قبل أن هذا سيحصل معي.

لم أفهم ما كان يحصل وكل ما كنت أفكر فيه هو كيف يمكنني الذَّهاب إلى المدرسة في اليوم التَّالي ومزاولة أعمالي اليومية.. ابتسمت خالتي، وقالت لي: «مبارك، لقد أصبحتِ الآن امرأة!»، حيث هدأت من روعي وزادت من استغرابي في الوقت ذاته! ثم أجلستني وشرحت لي كيف أستخدم الفوط الصحية. أتذكر أنني تغيَّبت عن المدرسة وشعرت بالخزي، خاصة بعد أن أرغمتني أمي على النوم في غرفة أخرى، بعيدًا عن الغرفة التي اعتدت النوم فيها مع إخوتي.

ثم كانت ليلة العرس، أو الدُّخلة، أين كانت النسوة يقفن خارج الغرفة، خلف الباب بالضّبط، خمس دقائق فقط من الانتظار ويخرج لهم زوجي عبد العزيز بمنديل أبيض ملطَّخ بدم أحمر قانٍ، منديل الشَّرف والعذرية الذي أعطته إياه أمه نوَّارة قبل أن يدخل بي، وأصرت عليه أن يقوم بالمهمة على أتم وجه كما سبق وأخبرني. وما لبثت عمَّته اليامنة أن خطفته من بين أصابع يده وأخذت تتقاذفه بشراهة منقطعة النَّظير مع النّسوة. كن يتقاذفن شهادة إثبات رجولة العريس وشرف وعذرية العروسة وهنَّ يتغامزن ويتهامسن بفجور ظاهر، بينما كنت أنا تعيسة ومنقبضة من هول ما رأيت. رغبت في إطلاق العِنان لنفسي، أن أبكي، أن أصرخ، أن أفرغ ما بداخلي، أن أنفّس عن غضبي، لكنني لم أفعل.

أنا امرأة سيئة الحظ، لم أتكلم بعد في موضوع اغتصابي من قبل المراقب العام سي مهذّب محمد فوزي، لا أزال أتذكر اسمه الكامل بعد مضي كلّ هذه السنوات، لم أخبر أيًّا من المقربين أو من العائلة

عما تعرضت له يومها، لا يمكن إثارة هذا الموضوع إطلاقًا، لم أنطق ببنت شفة، لا أحد يتوقع نتيجة التَّفوه بالأمر، لم أرغب في أن أفتح عليَّ أبواب الجحيم، كنت فقط أذرف الدموع لمجرد تذكر الأمر.

لطالما كرهت سيرة الزَّواج، وأن أصبح أُمًّا، سترزق بنصف دزينة من الأطفال. الضَّغط الذي كنت أشعر به كحقيقة لازمتني طيلة مراهقتي وإلى غاية اليوم؛ ليس لديَّ ما يسمَّى غريزة الأمومة التي تمتلكها كل النّساء في قريتي.

لما كنت في سنّ المراهقة كنت أعرف أنَّني لن أنجب أطفالًا.. يتوقع المجتمع منك أن تصبحي أُمًّا، وإلا فإنَّك مريضة عقليًّا. فبعد أن تزوَّجت وأنجبت هناك من قال لي: «أنت لا تستحقين ولدك»، وصل الأمر بي إلى تفادي لقائهم. وقد صدمتني ذات يوم أمُّ زوجي نوَّارة إذ انفجرت في وجهي صارخة: «إذا كنت نادمة على الأمومة فإنَّك تكرهين طفلك». لكن ذلك ليس صحيحًا. لطالما أحببت طفلي. ليس ذلك أمرًا يصعب فهمه في الواقع. فقد كان طفلًا صغيرًا ولم يكن الأمر معقدًا واضطررت إلى تعلّم الكثير من العادات لأجله، هناك بعض العقبات صادفتني لكنَّني حاولت واجتهدت. واعتنيت بابني، وتوليت رعايته بشكل جيّد.

يسألني البعض، كيف تعاملت مع الأمر؟ هل يمكنك فعل ذلك بطريقة صحيحة؟ هل يمكنك الاعتناء بطفلك بشكل جيد؟ هل تمكنت من ذلك؟ النَّاس هناك يصدرون الكثير من الأحكام وهذا أمر لا يمكن احتماله، إنَّه لا يحتمل. كنت أنا من يلبسه الثّياب بطريقة مناسبة بحيث لا يشعر بالبرد ويتعرض بعدها للزكام، وأنا من يحممه، وأنا من يصطحبه إلى الطَّبيب، كما كنت المسؤولة عن إيصاله إلى الجامع لتعلم الكتابة وحفظ القرآن وإعادته منه. دائمًا ما يعتبر هذا من واجباتي كأمّ، لم يتوقع أحد من زوجي القيام بأي شيء. طوال اليوم وعلى مدار الأسبوع كنت أنا من أقوم بالمهمَّة على أحسن وجه. النَّاس يصدرون كثيرًا من الأحكام جُزافًا.

ابني أنجبته عندما كنت في الثَّامنة عشرة من عمري، حملت وأنا في السَّابعة عشرة، صراحة لم أكن أريد إنجابه، لم أكن أخطط للحمل ولأن أصبح أمًّا. لكنني تعرضت للضغط في ذلك الوقت للإنجاب من قبل والدة زوجي نوّارة وشقيقته الكبرى صبرينة، قدمت رغباتهم على ما أريد، قالت لي أمُّه نوَّارة: «بعد الإنجاب... لقد ضمنت ألا يفكر ابني في الزَّواج بامرأة أخرى، وأنت الآن امرأة كاملة».

كان الأمر بالنّسبة إليَّ أشبه بأنَّني أدفع ثمن ذنب لم يسبق وأن ارتكبته أو شيء كهذا. توقفت عن القيام بكلّ الأشياء التي أحبُّها، بدأت أرتدي ملابس كالمسنَّات، حاولت أن أتقمَّص شخصية سيّدة ناضجة حتى أحظى باحترام كلّ من هم حولي.

كنت أتمنى تغيير ذلك. أتمنى لو أنَّني لم أصبح أمًّا. من الصَّعب أن تفهم كيف يمكنك النَّدم على شيء لم يكن لديك خيار فيه؟ فعندما تصبحين أمًّا لا مجال للتراجع، الأمر يشبه النُّدبة، تبقى موجودة معك طيلة حياتك.

لقد عانيت كثيرًا الضَّغط والقلق، ليس هناك ما يمكنني فعله، هناك دائمًا شيء خاطئ، ليس هناك وضع يرضي جميع الأطراف. في السَّنوات الأولى كنت أؤدي دوري كاملًا كأمّ، لكن مع مضيّ الوقت وبالذات عندما بدأت رعاية ابني تأخذ منّي وقتًا أطول، تراجع دوري كأمّ، كنت أفعل كل شيء لابني ولكنني كنت تعيسة في داخلي طوال الوقت، كان من المستحيل مواصلة القيام بالأمر.

بدأت أستعيد هوَّيتي الحقيقية، أنا أحبُّ ابني، لذا فالأمر معقَّد. كانت النَّتيجة ردود فعل عائلة زوجي وخاصة والدته، ردودًا فظة، فقد أصدروا الأحكام عليَّ، شككوا في أمومتي وتعرضت للانتقاد والتَّقريع اللاذع طوال الوقت. كانوا يفترضون أن ذلك يعني كرهي لابني أو أنَّني أسعى لإيذائه.

ينظرون إليَّ كما لو كنت شيئًا غير طبيعي، لا أعتقد أنَّهم يفهمون الأمر، لأنَّهم لم يمروا بما مررت به في طفولتي، لذا فهم لا يدركون

ذلك. فهم لا يعرفون قصتي، يحكمون عليَّ من دون أن يعرفوا شعوري، يرون المظهر الخارجي فقط.

أن تحبّ شخصًا لكنّك لا تحب الظروف التي تذكرك بأشياء سيئة خبرتها في طفولتك، فأحيانًا أرغب في التّخلي عن كلّ شيء وأفكر أنّ ذلك سيكون القرار الأفضل. أتمنى أن يتوقفوا عن الحديث عن الأمر، يخبروننني طوال الوقت بما يجب عليّ فعله وبأنّني أنانية ومستهترة وغير مسؤولة ومتهورة، وحين أكبر وأشيخ لن أجد من سيعتني بي، فكنت أعامل كقاصرة واقعة تحت رحمتهم، أتعرض للإهانة والتّعنيف طوال الوقت... فهم بذلك يجلدونني صباح مساء كما لو كنت دجّالة أو امرأة منبوذة بينهم، وإن استمريت بالعيش معهنّ فسيحرقنني وأنا حيّة أو سينتهي بي المطاف كجثة هامدة لذلك قررت الرَّحيل والمغادرة قبل فوات الأوان. إنَّهن ينظرن إليَّ كأنَّني امرأة أقل درجة وأقل طبيعية وأقل اهتمامًا ونضجًا من غيري. ويعتبرني البعض منهنَّ عالة على عالم النساء. ستكون حياتي وفق رؤيتهنَّ تعيسة للغاية.

يومها جلست على الرَّصيف وأنا بحالة مزرية وشبه محطَّمة، وتابعت البكاء بصمت، لم أدرِ كم دام ذلك المشهد، ولكن حالما تمالكت نفسي، رفعت رأسي من جديد، جالت عيناي في فضاء السَّاحة، لمحت ابني نزيم يبتعد بعربته، كان يلُوح لي في الجانب الآخر من الحديقة العمومية وقد بدأ يجتاز مقر سونالغاز إلى أن وصل إلى رأس الشَّارع وهو على أهبة الانعطاف يمينًا، يتناهى إليَّ صوته من بعيد خفيضًا، بالكاد كنت أسمعه وهو ينادي المارين: «ياو الشينة حلوة وبنينة.. ياو التفاح لي يشريه يرتاح.. ياو... ياو... ياو...». إلى أن اختفى تمامًا عن ناظري. لـــمّا نهضت كي أرحل، أخرجت المرآة من حقيبة يدي، كانت الدموع لا تزال جامدة على خديّ، ومساحيق التّجميل قد تلطّخت، تاركةً خطًا متكسّرًا أسود. ثم فتحت حافظة نقودي، حيث أحتفظ لابني بصورة باهتة وقديمة، مضى عليها زمن طويل.

15

في حقيقة الأمر، لا يتطلب العمل الذي كنت أقوم به في مكتب التوثيق جهدًا كبيرًا، في المقابل لا يستطيع أيا كان القيام به إذا ما لم يكن يتوفر على مهارة في التّحرير والكتابة على الحاسوب ويتحكّم في ترتيب الملفّات والإلمام ببعض الإجراءات. كما لم يحتج مني الأمر إلى كبير عناء حتى عثرت على هذه الوظيفة، ومع علاقتي الممتازة بربّ عملي الأستاذ جمال حيّاهم، كنت موقنة بأنه من سابع المستحيلات أن يأتي ذلك اليوم الذي أجد نفسي فيه مطرودة، كقطعة غير صالحة، أو غرض تافه تم الاستغناء عنه، فقد تم تسريحي من عملي هكذا وببساطة، كما تسرّح عاملة تنظيف غير مأسوف عليها.

ففي مطلع الأسابيع الأخيرة أخذت الأمور منحًى آخر، إذ بدأ كل شيء هنا في التغيّر، بالضّبط بعدما تعرّض الأستاذ جمال حيّاهم لوعكة صحية، وتفاقم الأمر بشكل تصاعدي بعد تعقّد حالته الصّحية مع مرور الأيّام إلى أن توفاه القدر وأحتل ابنه الأكبر وحيد مكتب التّوثيق وأضحى هو المتصرف والآمر النّاهي، يتدخل في كلّ كبيرة وصغيرة مرتبطة بشؤون العمل أو حتىّ بخصوص تلك الأمور البعيدة عن العمل.

وكنت في وضع لا يحسد عليه، خصوصا مع علاقتي السيئة بسعاد المقربة من وحيد. لم أعهدها بكلّ هذا المكر والخبث، وبهذه الوقاحة والشّراسة منقطة النظير. صحيح الزّمن جعلني بدون ذاكرة، كنت سيئة معها طوال الوقت، أشعر بأن علاقتي فوق العادة بالأستاذ

جمال حيّاهم حولتني إلى امرأة قبيحة. والأمر الآخر الذي كنت أتغافل عن عواقبه ولم أضعه في الحسبان أو يخطر ببالي على وجه الإطلاق هو قضية تأخري المتكرر عن الحضور للعمل في الموعد وعدم التزامي لا بالتحذيرات المتكررة ولا بالاستفسارات المتتالية التي كانت تصلني شفويًا من وحيد، وكيف عجلّ ذلك التّهاون في تعقيد الأمر بشكل مأساوي.

كنت ضحية لحملة تشويه قادتها سعاد، بتنسيقها مع زميلة أخرى يغمرهما الحسد، وكانتا ترغبان برحيلي بسبب وظيفتي التي كنت أحظى بها، كما كان حصولي على راتب أفضل من راتبهما أمرًا لم تستسيغاه قَطُّ. باختصار، إنهما تريدان التّخلص من الموظفات الأكثر كفاءة، لأنهن بمثابة عقبة أمامهن. أما وحيد فكان يرغب التّخلص مني لأنّه كان يدفع لي أكثر من الباقين. تعرضت للمضايقة والتخويف، كما تعرضت لحملة من الأكاذيب أدت إلى معاقبتي مرارًا وتكرارًا، ومن ثم عجلت بإنهاء خدمتي في مكتب التوثيق. لم أصدق ما حدث، لقد تــمّ اتهامي بأشياء كثيرة ولم يكن أيّ منها صحيحاً. أحاول عدم التعامل مع الأمر بشكل شخصي ولكن عندما تتعامل معي سعاد بكل لؤم وتبدأ في الكذب، أفقد صوابي بشكل هستيري.

بعد أن تلقيت مكالمة من المحاسب، والذي طالبني خلالها بضرورة التقدم لمكتبه لأخذ مستحقاتي المتبقية على ذمة مكتب التوثيق وظل المحاسب على الهاتف لمدة ساعة يحاول إقناعي بالقدوم لأخذ الشيك. ولكن لم تكن هناك أيّ طريقة أخرى للتعامل مع الأمر سوى الذهاب إليه. في نهاية المطاف كانت مجرد كلمات باردة مقتضبة بملامح جادة وظرف أبيض ووثيقة تلقيتها من يد المحاسب تتضمن اتهامات مغلوطة. حين فقدت وظيفتي، حزنت لما يحدث معي أنا من دون غيري وشعرت بالحزن من حديث الرجل.

طردي كان بالأمر السخيف، أشعر بالكثير من الحزن لأنّي كنت الوحيدة التي حدث معها ذلك. إنّها المرة الأولى التي يتم فيها

معاقبتي منذ عملت في مكتب التوثيق بهذا الشكل، فدائما ما كنت أحصل على الهدايا والمكافآت ومع ذلك فهناك دائمًا طريقة لائقة لتخبر موظفًا بأنه مفصول من العمل. إذا كنت قد قررت طرده بسبب خطأ فادح يكون قد ارتكبه أو بدون سبب، يستحق الطّرد أو لا يستحق. فلمّا ترى أن الوقت قد حان لإخباره بأن يترك العمل نهائيًا، فهناك ألف طريقة وطريقة لتخبره بهذا النبأ المؤلم من دون أن تقصم ظهره، كما حدث معي، بتكليف شخص آخر كالمحاسب، وهو بعيد كل البعد عن الأمر، وهكذا يعلن الأمر ببرودة دم على مسامعي. أعتقد أن هناك دومًا كلمات وأوقاتًا أفضل من غيرها لتوصيل هذا الخبر المؤلم. وهناك ما يمكن فعله لتخفيف وطأة هذه الصّدمة من جراء الفصل من العمل. لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق لأنه ترك أثرًا كبيرًا على نفسيتي وعلى حياتي ومعيشتي ككل. حتى وان كنت أرى في بعض الأوقات ذلك الأمر حتميًا، ولا مفر منه.

عندما طردوني بتُّ ضائعة وغارقة في محادثة نفسي: «لم يكلفوا أنفسهم بإيجاد الطريقة المثلى للقيام بذلك الأمر المفزع، من دون أن تتأذى مشاعري وتتفاقم مأساتي». من خلال طريقة تخلّصهم مني، تأكدت من أنَّهم «لا يجيدون فعل تلك الأمور في الغالب، طبعًا عن قصد». لم يساعدوني على فهم السبب، فقط بقرار وحيد غير مفهوم وغير مبرر، وهو مجرد متصرف أهوج اتخذ ذلك القرار وحده. إن من أسوأ ما تعرضت له هو فقدان الوظيفة التي كانت مصدر رزقي. ما آلمني أكثر هو التفكير المتواصل في الكيفية التي تمت بها عملية فصلي، وخاصة التوقيت والكيفية غير المناسبين، حتى لو كان أمر الفصل من العمل يتعلق بسلوكياتي، فإني أشعر بأنَّه حدث خطأ ما، كان يمكنهم أن يكتبوا إليَّ رسالةً عبر بريدي الإلكتروني يقولون فيها: «لقد أتيت إلى العمل متأخرة للمرة الثَّانية هذا الأسبوع وهذا يعرض التزاماتنا مع عملائنا لمخاطر، وكذلك يضر بأداء عمل بقية الموظفين الآخرين. من فضلك تأكدي من الحضور في موعدك وإلا فسيكون

علينا اتخاذ إجراءات تأديبية ضدك. أنت موظفة مخلصة، ونحن نعتمد عليك». وفي هذه الحالة لو حدث معي ذلك، لن أستطيع أن أقول مثلا: «لم أكن أعرف». من الممكن أني كنت سأتقبّل الأمر أو لو أجرى وحيد ابن رب العمل حوارًا قصيرًا وسريعًا ونقيًا أيضا معي وتجنب العبارات المسيئة والمقللة من قيمتي والتي جاءت في الوثيقة التي سلمني إياها المحاسب. كان سيكون من السهل عليّ تجاوز الأمر.

على الرّغم من أنّ إقامتي في زنقة الطّليان كانت بائسة، لكنني تعودت على الأمر مع مضي الزّمن وبتُّ أرى جوانب أخرى لم أنتبه لها في البداية، جعلت الأمور أقل سوءا من ذي قبل وجعلتني أتأقلم مع الوضع بشكل سريع. لكن مع توقيفي، أصبحت تقريبا شبه مفلسة، لم يكن لديّ مال لسداده لصاحبة البناية، لكنّها والحق يقال كانت امرأة متفهمة ولم تضايقني قَطّ. وبتّ في بعض الأحيان لا أجد الأكل الكافي الذي يسد رمقي، وفي بعض الليالي كنت أبيت وبطني شبه فارغ.

16

ما الذي يحدث في هذه المدينة المغضوب عليها؟ تهاوى كلّ ما بنيته حجرا تلو الآخر. إثر اعتقاله شعرت كأنّ زلزالًا عنيفًا ضرب زنقة الطّليان، ها هي ذي البنايات والبيوتاتُ التي كان يتربص بها المير الملعون ناجي مسعودان ورجل الأعمال الفاسد حمّة طُلبي تتهاوى أنقاضُها في لابلاص دارم أمام ناظري، وتستحيل إلى أطلال. وكأنني أمام كابوس راودني في مطلع النهار! حين سمعت خبر اعتقال جلال كانت الشمس ساطعة، وها هو الطقس يتحوّل إلى كوة مظلمة.

ها هو اليأس يعاودني، لم أخلق كي أفرح. كيف يأتي الفرح لامرأة لم تتسلق بعد جبل أحزانها؟ وها هو ذا جبل «إيدوغ» يتاخِمُها بمسافة غير بعيدة، شاهدا بأوليائه وصلاحه على عجزها وقلّة حيلتها.. ها أنا ذي أتذكر، وذاكرتي ما برحت تزداد ابتعادًا، ولم يعد يوجد شيء سوى مشهدي وأنا أشيّع جنازة صديقةٍ قضت نحبها في خرابة مهجورة، التهمتها قطط شرهة، اسمها «ناجي الرجلة» كما تحب أن نناديها أو«نجاة».

تجمعُني بها ذكرياتٌ حافلَةٌ وأيَّامٌ لا يمكن استرجاعُها في أزقة لابلاص دارم، إذ كنا نتقاسم وحدتنا وغربتنا والحكايات والقصص. في البداية لم نكن نعرف بعضنا، بعدها تعودت إحدانا على الأخرى. غادرتني من غير إعلان مسبق، من دون رجعة، بعد زمن قضيناه بحلوه ومره وسفالته إلى زغوان، حيث ووريت روحها الثرى. شأنها شأن جلال الذي فاجأني خبر القبض عليه وزجّه بالسجن كالمجرمين

لأنه ركب رأسه ورمى بقرارات المير عرض الحائط. وقف وقفة رجل مع ساكنة لابلاص دارم لحماية زنقة الطّليان من التهديم، لحفظ تراث المدينة العتيقة من الضياع في أطماع ومغانم مسؤولين فاسدين. هو الرجل الحر، بل فعل ما فعل، لأنّه يطمح بأن يغدو ذات يوم حرا في وطن غير مكبل، وأمّا المير وأعوانه فهم على نقيضه، مولعون بالسّطو والنّهب وأكل السّحت في بطونهم على نحو لا نظير له في بر أو بحر.

بعد وصوله إلى زنقة الطّـليان، عرفه النّاس هنا إنسانًا نبيلا، لا يخشى في الحق لومة أحد، أو صاحب سلطة، أو ذا جاه. كيف صمت الجميع حينما قُبض عليه؟ الأمر عينه حدث مع نجاة، فقد صمت الجميع قبل ذلك حين عثروا على جثتها المشوهة في تلك الخرابة!

لا أصدّق أن يغرقَ الناس في خوفهم وصمتهم وجبنهم وبؤسهم؛ كـفيصل بونخلة، وهو من تصدر المشهد بعد اعتقال جلال وأصبح ذا حظوة في لابلاص دارم، بل يرجع إليه الجميع في كل كبيرة وصغيرة.

اضطجعت فترة لم أقدرها، تاركةً عقلي يتنقل من ذكرى إلى أخرى. كان ما حدث لجلال ولسبب غريب بدا وكأنه يعيدني إلى ذكريات متفرقة ومتقطعة، نادرًا ما حدث معي الأمر ذاته من قبل، كم استمر ذلك؟ لا أعرف. تذكرت حينما رافقتُ زُبيدة الشوافة بعد أيام من دفن نجاة إلى جبل «المغارة» التي تبعد عن لابلاص دارم بكيلومترات. حتَّى أبحث عن بعض الأمان. طالما حدَّثتني زُبيدة عن قدرات الشيوخ والأولياء ولم يسبق لي وأن وطأت قدمي أو رأيت ما يشبه ذلك الواقع إلا في حكايات متفرّقة سمعتها من أفواه بعض النّسوة في السوارخ حيث كنت أقطن.

لما زرت المكان، بدوت مبهورة بالجبل والبحر والمغارة والطقوس وما خبرته من صفات وأشياء لا توصف ولا يمكن رؤيتها، وما فتئتْ عالقة ببالي كوشم لا يمكن للزمن إزالته. وكنت كلّما تذكرت نجاة أو جلال أتأوّه باستمرار. الأيام المتعاقبة تقطعني كسيف حاد لا يرحم. أظنّني بدونهما بقيت وحيدة في زنقة الطليان كشبح لا غير! لدرجة

صرت ألعن في قرارتي الكثيرين ممن كنت أصادفهم في طريقي، ممن لم يحركوا ساكنا، الكثير، منهم خذل أحلامي وذكرياتي، مذ راهنتُ على جلال ونجاة والأستاذ جمال حيَّاهم، لا آمن غدرهم وغدر الزمن، فالغد قد يحمل المزيد من الأخبار غير السّارة والأيام المليئة بالأوقاتِ العصيبة، ولا أثق في أيّ شيء آخر، فعزائي الوحيد أنّني قد أربح رهاني ذات يوم وأرى جلال مرّة أخرى. جلال تتوفر فيه كل صفات الرّجولة، علاوة على أنّني أكبره بأكثر من عقد، فأقصى ما أتمنى أن أحظى برجل في أوج شبابه، أرغبه كزوج. أما زوجته وأولاده فأمرهم لا يعنيني، هو من هجرهم بمحض إرادته. رغم قلة حظي الذي أندبه على ما صِرتَهُ، مذ حدث ما حدث عن قصد وليس على سبيل المصادفة. ويبقى حلم طفيف يلازمني في وحدتي.

لم أتخلَّ عن حلمي كما قد يظنُّ هؤلاء وأولئك، من لا يحبون لي الخير، هؤلاء يرغبون في أن أصير ركامًا تذروه رياح اليأس وفق ما كانوا يطمحون ويعملون ويسعون. أما أنا فكنت أطمح بضراوة أن أستمر. حتى أعيش ذلك اليوم، أعيش واقعًا مختلفًا، ها هنا، في زنقة الطَّليان كما كان يأمل جلال. وحدها «نجاة» من تعرف الاطمئنان، بعدما اختارت جانبًا مشمسًا من مقبرة زغوان، سأجد عندها بعض السلوى.

حاولت طوال الأيام الماضية الاتصال بجلال، لكن من دون جدوى. كان موبايله مغلقًا. فمنذ اعتقاله ذهبت إلى مركز الأمن التاسع أكثر من مرة، طمأنني الضّابط المسؤول هناك بأنه سيكلف من يتحرى الأمر، وطلب مني أن أترك لهم رقم هاتفي. بقيت أنتظر مكالمة منهم. للأسف، لم أتلق أيّ رد إلى غاية اللحظة. كما تلقيت البارحة اتصالًا من علجية المداحة، على أساس أنّها ستأخذني بصحبتها اليوم بعد الظهر للقاء رجل أمن من معارفها، تقول إنّ بإمكانه ترتيب موعد لزيارة جلال في السجن.

الشّقة غارقة في الصمت، وأنا أنتظر مكالمة من علجية. إنها تجاوزت الواحدة زوالًا. ولا اتصال منها. ماذا حدث؟ ها قد مرّ الوقت المتفق

عليه. من الأفضل أن أتصل بها. حينما كلّمتها أخبرتني أن رجل الأمن اعتذر عن الحضور لموعد لقائنا، لأنّه كلّف بمهمة طارئة بمدينة غرداية.

بعد أن توقفت عن العمل أصبحت أصحو من نومي فجأة، وفي أوقات متفرقة. أجلس فوق سريري ولا أعرف ما الّذي أفعله! أحسست أنّ حياتي استحالت إلى فراغ كبير. أشياء كثيرة تدور برأسي، تعود بي الذاكرة إلى تلك المحادثات التي دارت بيني وبين جلال وبيني وبين نجاة. أفكر للحظة، كأنّ كلمات تلك المحادثات منتقاة بعناية. تستبشر أسارير وجهي وأشعر بقلبي يرقص فرحًا لكنّني فجأة أتراجع وأشعر بوطأة الواقع وأفكّر من جديد في: «ماذا سيحل بي في قادم الأيّام؟ ماذا سأفعل في مثل هذه السّاعة وفي بقية ساعات اليوم؟». أفكّر في أمورٍ كثيرة من دون جدوى. الأشياء الحزينة جدًا تفرض سطوتها على ذهني، أفكّر في ميزانيتي الّتي أصبحت متقشفة للغاية حتّى أنّها بالكاد تكفي لسد رمقي، ما عاد بوسعي اقتناء أي شيء أرغبه، حتى ولو كان من الضّروريات، فقد يسبب لي عبئًا إضافيًا تنوء به ميزانيتي المحدودة جدًا. ورغم ذلك أحاول أن أتأقلم مع وضعي الجديد وأن أوطّن نفسي على تحمّل ما هو أسوأ.

فجأة يقفز إلى ذاكرتي القط مينوش وكيف تألّم جلال لفقدانه، سمعته ذات يوم يحكي بأسًى مضاعفٍ عن افتقاده وكيف منحه العطف والرعاية، لكن مينوش تنكرَّ له كما أعتقد، «وألقى بنفسه للشارع، للمجهول، لأجل لا شيء، أو خلف قطة لقيطة». لكنَّه يقول في النهاية وكأنَّه استدرك شيئًا من المنطق: «مينوش مجرَّدُ قط، ليس من صلبي، وحتى أطفالنا حالما يدركون أنَّهم كبروا وصاروا شبابًا، يغادروننا كالحمام، لا مجال لنا سوى سماع أصواتهم خلف سماعات الهاتف من بعيد، من ضفة أخرى. ورغم كلّ ذلك ما زال حنان الأولياء يغطّي أولئك الأطفال مهما كبروا وكأنَّهم رُضَّع...». آه تذكرت ليلة البارحة، كيف أن جيشًا من القطط تجمع في الزنقة وحاصر البناية، لم يهدأ صخبهم إلَّا قبل صلاة الفجر بقليل.

مرة أخرى أرجع للواقع المتصدع. أفكّر أيضًا أن أفتح الباب وأخرج الآن هائمة على وجهي في الشّوارع. لكنّني لا أُريد أن أُزاحم الكلاب أو القطّط السعيدة التي التهمت نجاة وهي تتضاجع، وكأنّ الشوارع خالية من البشر، ومن الأطفال الذين لطالما كانوا يؤذونها. ولا أُريد أن أفسد عليهم لحظاتهم الجميلة بنزولي الآن؛ ما الذي أصابني حتَّى أفعل بعقلي ما أفعله الآن؟ أظنُّني بت كالمخبولة. أعلم أنَّ الحزن هو ما اضطرني للتحدث مع نفسي بهذه الطريقة. فمنذ أن غُيّب جلال عن الزنقة قهرًا وماتت نجاة غبنًا، تحوّلت حياتي إلى جحيم من نوع آخر، أتحدّث مع نفسي. أنا حزينة لأنّني وحيدة من دونهما.. كسجينة تحاصرني الأسوار والقضبان أو كمومس هرمت وتخلى عنها الجميع وجلستْ عارية أمام مرآتها تبكي وحدتها وتجاعيدها كامرأة ذبلت وشاخَت ولا تنتظر من قادم الأيَّام سوى النّهاية وقد لا تأتي تلك النّهاية!... وتبقى تلك المرأة تعيش مع خوفها دومًا حزينة، مخذولة كأنّها يتيمة. لا أحد ينتظرها أو يسأل عن حالها. مثلي تمامًا. أشعر أنّني جُرِّدتُ من كلّ شيء كان يشعرني ببعض الأمان والدفء.. عارية.. وحزينة لكوني إذا استمرت الأمور على هذا المنوال سأصبح قريبًا بلا مأوى.

لم تبق إلا أيّام معدودة، بلْ من المحتمل أن يعرف الجميع ما سيؤول إليه الوضع. إن نجوتُ فذلك ما كنت آمله، أعرف أنّه محض معجزة، وإن لقيت مصيرًا سيئًا، فلا أعتقد أنّني سأخسر أكثر مما خسرت من قبل. أرجو أن يلهمني الله القدرة على انتظار ما تحمله لي تلك الأيّام... ولا يهمني ما الذي سيحدث بعدئذ.

فالرّجل الذي كنت أنتظر، وقد فارق غصبًا عن رغبته وإرادته المكان والموقع الذي تمنيت أن يجمعنا ذات يوم في حجرة واحدة، كما حلمت دومًا، تجرفنا الحياة من دون أن نأبه للآخرين المحيطين بنا وأن يحتضننا اللّيل ونحن غارقان في تأمل بعضنا، متناغمان في العتمة، ورأسي يرتاح على كتفه، ثم أغرق في سحر يديه المنفلتتين،

إلى أن تجرفنا اللّحظة. نأى بأبعد مــمّا ظننت وتوهّمت. ما عاد سجنه أمرًا قصيرًا أو محض لحظة عابرة، لا شيء سينجيه من بطشهم ووحشيتهم. وها هي روحي وقد ذبلت كورقة خريف متساقطة تذروها رياح الدّهر وتتلاعب بها تصاريفه أنى شاءت، وانطفأت كشمعة وحيدة محترقة من ثقل ووطأة ما خبرته من أحداث وفواجع. ولا رجاء من انتظاره، لن يتناهى إليّ مجددًا وقع قدميه السريع على درجات السلم الخشبي ولا صوت المفتاح وهو يدور في قفل باب شقته، لن يعود لي مرة أخرى، وقد استعصى عليه العالم للعيش فيه. ما الذي يحدث لرجل تدثّر الجميع بمعطفه وها هو يمضي وحيدًا في الظّلمة، يُدبر بعيداً ولا يلوي.. لا أحد يسأل عنه، عن حشاشة قلبه وقد خذلته أحلامه كما خذله الجميع. قدماه تمضيان به نحو فم العتمة والهاوية المفتوح على سعته، لم تكن سوى فتحة مظلمة وباردة وعمقها مخيف.. وما بقي من خلفه سوى ذكراه الطيبة في زنقة الطّليان، تحوم في الظّلمة الشّاحبة، وكأنّها تحاول عبر الزّمن استعادة شيء مفقود في نفوس الناس، ثم تحلّق أخيرًا باتجاه الشّقة التي كان يقطن فيها والأمكنة التي عبرها، كأنّها بوهجها الخافت على جدران الأبنية وأسطحها تريد استرجاع زمن ضائع أو شيء مفقود من زمننا الحاضر.

17

الأيّام تتوالى بمتتالية عبثية، حبلى بكل ما تحمله لنا من فجائع وخسارات. لا تُعلِّمنا سوى الانتظار وإطالة أمد صبرنا إلى أقصاه. لا مكان هنا للأخبار المفرحة ولا أحد يضمن إلى متى ستبقى له قدرة على الاحتمال أمام تضاعف منسوب الأخبار السّيئة؟ انقضى أسبوعان على توقيفي عن العمل ثم أسبوع كامل على اعتقال جلال من دون أن أنتبه حيال ذاك الانفلات الزمني الهارب من أعمارنا. بدأ النَّاس هنا بالتململ وفقدان الأمل بعد سماع الأخبار التي تقول بأن موعد ترحيلنا قد بات وشيكًا في أي لحظة ممكنة.

يكفي الوقوف خلف النافذة والتأمّل. تأمّل مساحة ضيّقة وطويلة وجانب وافر من سلوكيات الناس وحركتهم في غدوِّهم ورواحهم، في زنقة واحدة اسمها زنقة الطّـليان حتى يغرق ذهني في بحر متلاطم من التَّخيُّلات التي لا تلبث وأن تُعاودني ككل مرة. توفيت نجاة بعدها تم توقيفي عن العمل. ثم لحقها اعتقال جلال. ولكنَّها لم تكن أحداثًا تمرّ لمجرد المرور. كانت وقائع أثرت في تفكيري ونفسيتي طوال الوقت.

كما قلت، كنت أقف خلف النَّافذة، الحياة في الخارج كانت مستمرة، لم تتوقف ومعها كانت تدور هذه التخمينات في ذهني، تباغتني في أغلب الأحيان في السَّرير أو حين أكون أتأمل من النَّافذة. وإذا توفر لديَّ القدر الكافي من المال كنت أخرج لأجلب علبة سردين ونصف علبة جبن وقليلًا من الزَّيتون الأسود وبضع بيضات وزجاجة

من الليمونادة الرخيصة الثمن. مؤونة قد تكفيني أيامًا بطولها. أحاول التّقتير قدر الإمكان، فقد تخليت عن الكثير مـمَّا كنت أقتنيه من باب الابتعاد عن الإسراف، فلم أعد أرغب في اقتناء البيتزا والمحاجب وخبز الكسرة والياغورت... مواردي أضحت شحيحة.

وكنت بين الحين والآخر أدخل في حديث هامشي مع أحد الجيران وأنا في طريق التَّبضُّع. وغالبًا هناك من كان يطلّ علينا من نافذة بيته في الطابق الأوّل أو الثاني مسترقًا السمع لِـما كان يدور بيننا من أحاديث. كم كان رجال لابلاص دارم أناساً طيبين وودّيين ودمثين وكم كانت نساؤهم فحلات وجميلات ويعوّل عليهن في الأيّام الصعبة والأوقات العسيرة. خيلَّ إليَّ في بادئ الأمر عندما أقمت بزنقة الطَّليان أنَّني لن أستطيع أن أتأقلم. فقد كنت أخشى من الأحياء الشعبية ولم أكن أحبّ قاطنيها وكنت أخشاهم وأشعر نحوهم بالريبة. فقد كانوا بالنسبة إليَّ، مجرَّد بقايا بشر، من المتوحشين والمخربين والقذرين والمجرمين والسكارى والسرَّاق والمسبوقين والمزطولين. حثالة المجتمع. حتّى صاحبة البناية كنت أعتقد أوّل ما عرفتها أنّها مجرّد عجوز شمطاء، عاهرة، غريبة الأطوار، كثيرة الملاحظات، سليطة اللسان. واضعة إياي نصب عينيها في حال إذا تأخرت عن دفع ثمن الأجرة في موعدها ستركلني إلى الشارع بأقصى قوَّتها، من دون أن توجه إليَّ أيَّ إنذار بالإخلاء. بعد أن خبرت المكان والنَّاس أدركت كم كانت انطباعاتي التي رسمتها مسبقًا مخطئة بشكل مطلق. يا إلهي حين أتذكَّر كيف جعلتني خيالاتي أرتاب وأحتاط إزاء كلّ شيء، فلم أكن أترك بتاتًا باب الشَّقة دون إغلاق بالقفل، سواء أكنت داخلها أم خارجها، وحتى وإن خرجت لمشوار صغير لم أتوانَ مطلقًا في غلقه.

كنت أتصوَّر أنَّ في مثل هذه الأحياء تنشب دومًا المشاجرات الحادة بين الجيران، النّساء والرّجال على حد سواء، كنت أتخيَّل أحدهم يندفع مقابل الآخر ويأخذ يكيل إليه سيلًا من الشتائم. وبعد أن يتملَّك الغضبُ المجموعة الأخرى، تروح بدورها تشتم خصومها،

فيما تأخذ بنعتها بأقذع وأغرب كلمات السب والشتم والمعايرة، كأن تقول الواحدة في المجموعة الأولى للأخرى بالمجموعة الثَّانية: «أنت عاهرة تاع فلان وفلان بالاسم». ثم تنتهي تلك المشاجرة بمشاهد مبارزة حرة بين النسوة في شدّ الشعر.

قلت في نفسي بعد أن تنفست بعمق: «الخلاصة أن خيالي كان خصبًا جدًّا، وما وجدته وعشته كان مختلفًا تمامًا عما تخيلته في ذهني».

حين غُيّبَ جلال قسرًا، احتل مكانه فيصل بونخلة، كنت ألقاه من حين إلى آخر، يتصنَّع النظرة التأملية الواثقة، بالكاد كنا نتبادل الحديث. لم يكن جلال قد أفرج عنه بعد، وكان الجميع هنا يقدّر فيصل، وبات رأيه محترمًا ومسموعًا في لابلاص دارم، كأنه احتل موقع جلال في نفوس النّاس. كان الأمر يضايقني وكلّما يحدث وأن أصادفه كنت أتساءل في قرارة نفسي: كيف لهذا المهرّج المعتوه أن يضع نفسه في رتبة جلال!؟ من سمح له بذلك؟ ولماذا قبل الجميع بالأمر الواقع، ولم يحركوا ساكنًا بخصوص مساعدة جلال في محنته التي ألمت به لوحده؟ كان يفكر في الجميع، لكنهم تخلوا عنه، تركوه وحده لمواجهة قدره من دون أدنى عون!

قبل منتصف النّهار بقليل، التقيت فيصل بونخلة. كان أول من ابتدرني بالتّحيّة قبل أن يستوقفني وهو في طريق العودة إلى بيته وفي يده كيس ورقي بنيّ اللون يحتوي على خبز الكسرة:

– مرحبا، كيف حالك؟

تصنعت ابتسامة وأجبته ببرود:

– أنا بخير، الحمد لله.

في حقيقة الأمر أنا أكذب؛ فأنا لست بخير! كنت أدّعي وأحاول أن أتظاهر أمام الجميع بأنّني بخير. استقبلني هذا الأحمق بابتسامة قلقة، ثم قال:

– ما رأيك في رشيد العفريت؟

نظرت إلى فيصل نظرة متململة. وقلت:

– إنّه غريب الطباع ويشعرني بالفزع.

قال وهو يهزّ رأسه:

– هل سمعت بما حدث له؟

قلت بصوت هادئ وواضح، مشحون بشكل غريب من نبرة الاستغراب:

– لست أفهمك على الإطلاق...!

صمت قليلا، بعد ذلك قال:

– إذًا دعيني أخبرك.

وراح يروي على مسامعي خبر تورط رشيد العفريت في طائفة دينية محظورة، بينما واصل الشرح خالجني شعور غريب، لم أُميّزه. أمقت هذه الحكايات إنها توترني.

لكنّه واصل الحديث:

– قبل أكثر من نصف ساعة من الآن، أو قبل ساعة تقريبا، تابعت توقيف رشيد العفريت، من قبل فرقة مشتركة من الدرك والشرطة مدججين بالأسلحة.

من دون أن أمهله يكمل حديثه، قاطعته قائلةً:

– أعتقد أنّك تمزح معي، رجاءً لا أحب الهزل في القضايا الجادة..

جاوبني مؤكدًا:

– لقد رأيتهم بأمّ عيني بأعالي سبعة رقود، في أثناء مداهمتهم للبناية التي يقطن بها، يقومون بتفتيش شقَّته وتقليب كل محتوياتها رأسًا على عقب، شاهدت دركيًا يخرج وبحوزته مناشير وكتب وفيديوهات. فقد تبيَّن حسب ما قيل هناك أن رشيد العفريت أحد قادة جماعة الأحمدية القاديانية، وقد تم القبض على شخصين آخرين

كانا برفقته ينحدران من ولاية أخرى، فيما تم توقيف الشخص الرَّابع بالقرب من قنطرة الهواء.

قلت وأنا مازلت في حيرة من أمري لا أكاد اصدق الخبر:

– لا أفهم، كيف فعل ذلك ولم ينتبه له أحد من ساكنة لابلاص دارم؟

قال فيصل وكأنّه يقرر حقيقة يمتلكها لوحده، حقيقة غير معروفة وغير شائعة بين ساكنة لابلاص دارم:

– ظهر أن رشيد العفريت اسم كان يتخفى من ورائه، وأن اسمه الحقيقي: محمود فالي، وهو من قادة تلك الجماعة الدينية التي تطاردها الشرطة عبر الولايات.

سألته من دون تفكير:

– هلا تخبرني لماذا كان يخفي اسمه عن الجميع هنا؟

قال موضّحًا:

– لقد تعمّد ذلك، لم يكن ينوي أن يخبر أحدا كي يبقى بعيدًا عن أعين الشرطة، فهم يعتبرونه خطرًا على أمن البلاد. كان يميل للحذر حيال كل أمر مريب قد يتسبب في القبض عليه.

قلت وأنا في حيرة من أمري:

– يا إلهي أمر غير قابل للتصديق، كنت أظنّه درويشًا يهيم بين أزقة وأحياء لابلاص دارم.. أينما حللت كنت أصادفه، طوال الوقت كأنه ظلي يلاحقني.

لم يجب بشيء، ولـــمّا لاحظت صمته واصلت الحديث:

– لكن يجب أن تخبرني أوّلاً. هل صدّقت فعلا حركات رشيد العفريت وانطلت عليك حيله؟ جاوبني بصراحة. أم كنت مثلي كالمغفّل الذي لم يشعر بأيّ شيء؟

لاذ بالصمت مرة أخرى، كأنّ كلماته قد نفدت. كان ينظر إلى شاشة هاتفه الذي كان يرتعد بين أصابعه، عرفت أنّ هناك من كان يطلبه إلى أن قال:

– حسنًا، أتركك. عليّ إيصال خبز الكسرة للبيت الآن. لا أرغب في التأخر أكثر، كما ترين هم لا يصبرون، يرغبون بكل شيء في لمح البصر. يعتقدون أنّني أطير.

قبل أن يغادرني طرأ تغيير كبير على ملامحه، أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا ثُـــمَّ نظر نحوي وقال كأنّه استدرك أمرًا مهمًّا للتوِّ:

– نسيت أن أخبرك بأمر مهم، فقد لفت نظري جاركم في البناية المسمى نونو لارتيست، وهو يحادث أحد رجال الأمن. بطريقة غريبة من التآلف بينهما. لم أجد للأمر من تفسير. لكنّني بقيت مستغربًا حيال كلّ ما حدث.

بعد أن أنهى فيصل حديثه، نظرت إلى الساعة في شاشة الموبايل، كانت قد تجاوزت الثّانية عشرة ونصف بقليل. ساد مجددًا صمت بيننا لبرهة من الزمن إلى أن ودّع كل منا الآخر على صوت أذان الظهر يتناهى إلى أسماعنا من جامع أبي مروان.

قفلت راجعة إلى الشّقة.

كنت أجلس لساعات طويلة في شقتي ولا أجد شيئًا أفعله. شقتي على صغرها تحوّلت إلى ممرّ يشبه المتاهة، أمشي وأترنّح في تعاريجها وانعطافات مساحتها المستطيلة أو المربعة، صباح مساء كالمحبوسة. من غرفة النّوم إلى مطبخي، ثم إلى الممرّ القصير والضيّق الموصل للباب الخارجي. يتسلل إليّ الملل والوسواس القهري كدودة تنهش لحمي ولن ترتاح حتى تتركني عظمًا واهنًا. هل سيشعر الجيران بأنَّني قلَّلت من الحركة وبدأت تدريجيًا في الاختفاء بعد أن اعتادوا رؤيتي في أوقات بعينها وأنا خارجة للعمل وأنا راجعة...؟ مع توالي الأيَّام ومرور الوقت لم أعثر على طريقة تحميني من نفسي. البطالة المفروضة عليَّ أجبرتني على تغيير عاداتي اليومية وأضحت أيّامي مربكة.

أصبحت أنام أطول عدد من السَّاعات. كما أعترف بإصابتي بالذُّعر كلما سمعت أخبارًا عن ترحيل ساكنة زنقة الطَّليان خاصة بعد

اختباري لأعراض الإصابة بالحمى والزكام وأمراض أخرى حتى لو كانت أعراضًا وهمية، فمشاعر الخوف كانت سريعًا ما تنتقل إليَّ في صورة من نوبات الهلع مع كل ما أسمع من الجيران من يتحدث على أن الرَّحيل بات وشيكًا فأصبحت أتخيَّل الطرد كأنَّه كابوس يهاجم جسدي وينغرز كخنجر صدئ، قاتل داخل صدري. لذلك كان نومي متقطعًا ولم يكن من سبيل أمامي لأتغلب على مشاعر الخوف أو على الأقل أحدُّ من تأثيره، فكان النَّوم لوقت طويل هو سبيلي.

بدأت أشك في كلّ شيء حتى في نفسي، وتضاعفت هواجسي. لم يكن فقط التَّرحيل هو ما يقلقني، لكن يومياتي الرُّوتينية التي أقضيها في الانتظار، وأكثر ما أرَّقني هو خوفي من أن يلازمني ذلك، فأصبحت أقضي وقتًا أطول خلف النَّافذة وفوق السرير غارقة في هواجسي. لا سلطة لي على جسدي وتخيُّلاتي، إذ تعاودني من جديد كوابيس اليقظة والنّوم، كنت أتآكل من الدَّاخل، والآلام المصاحبة لذلك كانت عظيمة، حتى أتلاشى تمامًا. صحيحٌ أن الألم دليل على أن جسدي يعمل بكامل كفاءته، لكنَّه مؤشر على الانهيار كذلك. فلم يكن بوسعي أن أحارب هذا التَّآكل الداخلي ولم أقوَ حتى على المحاولة، فقط كنت أتعاطى العقاقير وبعض الأدوية كالسوبرادين في محاولة مني لترميم ذهني من المخاوف والهلاوس، رغم ما يسببه خياري من تداعيات، لكنّني قبلت على مضض. فلم يكن بيدي حلّ سوى الرضوخ إزاء ذلك وعدم التفكير في التداعيات.

البقاء مكتوفة اليدين في أثناء وجودي داخل البيت أمر لا يطاق. سيطرت عليّ خيباتي ولم أجد أيّا من المقربين، من أحيط بهم نفسي ومن يهتم بي وبوجودي. كانت هذه الفترة هي الأسوأ، لتداعي الذكريات المليئة بكل الخيبات التي تعرضت لها من قبل الناس، خصوصا ممن كانوا يحيطون بي، أقرباء أو غير أقرباء. وتذكرت كوني ضحيّة في أغلب ما حدث في حياتي مع الآخرين. أيضا لم أستطع تخطي تلك الذّكريات، فقد سيطرت على أفكاري بل وجعلتني أكثر

غضبًا حيال بعض الأشخاص الذين لم أتوقع أن يسيئوا إليّ بكلّ ذلك القدر في تلك الفترة من حياتي. لا أجد لهم العذر مطلقًا لفعل ما فعلوه، وكنت ألوم نفسي كذلك للوقوع في الخطأ نفسه دومًا. مرة أخرى، من جراء الملل والخوف من الإصابة بالوسواس القهري بدأت في طرح أفكار عن نهاية العالم المحتملة، هل الوحدة والانعزال عن الجيران عمقت من حالتي تلك؟

أرغب حين أغمض عيني، ألا أعود لتذكّر أيّام طفولتي وما تلاها من حرمان وحزن. سنوات طويلة أمضيتها مع أهلي وعائلة زوجي. صحيح أنّها كانت أياماً صعبة ومظلمة وعصيبة. ولكنّني اليوم وأنا وحيدة في شقتي بعيداً عن أصدقاء أو أحباء، عندما أتلصص على الجيران، وهم يعيشون تلك الأوقات التي تقضيها الأسرة مجتمعة باكتمال عدد أفرادها غالباً؛ منهم من يغني ومنهم من يطبّل ومنهم من يرقص وهم يمرحون في جوّ عائلي وحميمي، أدرك جيّدًا كم عشت مغبونة ومحرومة وحيدة، لا أحد يسأل عني أو يأبه لحالي.

أعترف أنّني على الأقل كنت فيما سبق أتجمّع مع سكان العمارة في مكان واحد أما اليوم فأنا أجلس في حجرتي وحيدة منذ أكثر من أسبوعين، أعيش حالة توتر نفسي لم أواجهه سابقًا حتى في أصعب مراحل حياتي. كيف يهدأ لي بال وأنا أعلم أن جلال يقبع في السجن؟ كيف أطمئن ونجاة سرقت منها الحياة؟ كيف لا أقلق وكل ساكنة زنقة الطّـليان يواجهون التّرحيل الوشيك من بيوتهم، وأنا واحدة منهم؟ قرارات المير اللعين، تبًا له. وسط هذه الظّلمة من الصّعب على الواحد أن يتمسك بالأمل وحياته في خطر وشيك. تمامًا، إنَّه زمن نعيش فيه لا أحد يضمن مستقبله، خصوصًا بوجود أمثال حمّه طُلبي، هذا الشّرس، الشّره الذي أنهك ساكنة زنقة الطّليان جميعًا بطموحاته ومطامعه. فاستحالت حياتهم إلى معركة حقيقة من أجل البقاء، لا نجاة منها إن لم يخرج جلال من الحبس. أتعلق بخيط شارد أبيض رفيع قد يربطني بحلم قادم.

إنَّ صمتي وتقليل حركتي وخروجي وحديثي إلى النَّاس، على غير العادة، كان من الأسى واليأس اللذين يعصفان بي، كلما خمنت في ما تخبئه لي الأيَّام القادمة. لم أكن أريد أن أضيف شيئًا من القلق إلى الضَّغط الذي كنت أعيشه. بدأت أتوهم بأنَّني أصبت بزكام بسيط ثم بصداع في الرأس ثم بفقدان بعض من حاستيْ الشَّم والتذوق، ومع ذلك فأنا أشعر بإرهاق كبير. كنت وحيدة مع نفسي، لم أعد أخرج إلا فيما ندر، لم أرغب في رؤية أحد. وبقيت حبيسة الانتظار. كم كنت أكره شيئًا اسمه الانتظار. لم أعد أرد على مكالمات الموبايل. لقد عشت لحظات عصيبة وأنا حبيسة شقتي. أنا متعبة، ولكنني أخشى أن أهزم.

ما يمور داخل رأسي أرهقني إلى درجة أنَّني مرضت، في داخلي كنت أموت في صمت. شعرت بالموت يطوف في حجرتي وفوق سريري غير أنَّني لم أبذل أي جهد في المقاومة، كنت مستسلمة، تخليت عن طقوسي في الحياة. توقفت عن الاهتمام بزينتي وبملابسي ومظهري ككل. كنت كلَّ صباح أو مساء، لست أدري، فقد اختلط عليَّ حابل الزَّمن بنابله، أجلس وحيدة لا أتحرك إلَّا للجلوس خلف النافذة، أحاول أن أمسح المكان في الخارج بعينيَّ الشَّاردتين. لقد اكتشفت أن الوقت يمتد بشكل ممل وخانق، منعني من التحرك والتَّفكير في مخرج لما أنا فيه. منذ أن توالت تلك الأحداث بشكل مزمن في حياتي، أحسست أن ذلك يستنزف قوتي باطراد، أنا ميتة على قيد الحياة، لم أعد أحب الحياة. أنظر بوجه فارغ إلى السَّماء وإلى الشَّمس، وأنا أقل انتباهًا إلى كل ما يترامى أمام ناظري.

18

في صباح اليوم التّالي، وعند السّاعة العاشرة والنّصف تمامًا، استيقظت مفزوعة جرَّاء جلبة غير معتادة. السّبت كان يوم عطلة نهاية الأسبوع، وفي العادة كنت أقضي الصَّبيحة ممدودة وغارقة في سبات عميق كالأموات، وإن حدث واستفقت فلم يسبق وأن نهضت من سريري، لا شيء يضاهي لذَّة الاستمتاع بالبقاء في الفراش لما بعد منتصف النّهار. «يا إلهي.. هل بتّ مغفلة إلى هذا الحد؟ أم أنّني لا زلت نائمة؟ لقد انقضى أكثر من أسبوعين على طردي من العمل، وأحيانا لما أستيقظ أستعجل تجهيز نفسي للمضيّ للعمل، وبعد هنيهات أتذكَّر أنَّني أُحِلْتُ على البطالة رغمًا عن أنفي».

لم تمضِ بضع ثوانٍ حتَّى قفزت من فراشي كالمذعورة ولو كان هناك أحد معي بالغرفة لاعتقد (لا محالة) أنَّ مسًا قد أصابني. هرولت صوب النّافذة لاستكشاف مصدر الضَّجيج، فتحتها على مصراعيها، لم آبه لصوت النافذة وهي تفتح، ثم انحنيت إلى الأمام ومددت رأسي إلى أسفل البناية، كان الزُّقاق مزدحمًا على غير المتوقع، وقع نظري على مجموعة من الأجانب، انتبهت أن أغلبهم شيوخ وعجائز، بعضهم يتنقلون من شارع فيليب إلى زنقة الطّليان وهم مشدوهون في البيوت القديمة للحيّ.

ها قد لمحت صاحبة البناية تصحب أحدهم، رجلًا سبعينيًا، وبينما كانت منهمكة في الحديث معه بلغة فرنسية راقية، التفت إلى زوجته وهو يقول لها: «هل تتذكرين البناية؟» فتجيبه زوجته بأنَّها تتذكرها جيدًا، لكنَّها نسيت اسم الزَّنْقَة. ففكرت أنَّها ستدخله أحد

البيوت لمشاهدتها، وهو ما حدث بالفعل بعد هنيهات. بينما توارى الثَّلاثة، اقتربت مجموعة أخرى، يحيط أعضاؤها بالمرشد ساسوكي؛ شاب مديد القامة، عضلاته قويَّة على الرَّغم من نحافته، وجهه رصين ضارب إلى المخملية. سبق وتعرفت عليه، يقيم قرب جامع أبي مروان، ويشتغل كمرشد سياحي بالمتحف الرُّوماني بطاباكوب.

خطَّ رؤوف سكتة بتؤدة وسط حشد المشاركين في الجولة، يسترق السَّمع إلى ما يدور من حديث، قبل أن يدفعه ساسوكي دفعًا إلى خارج المجموعة، انسحب غاضبًا من ردَّة الفعل المباغتة، وبعد أن ابتعد مساحة تضمن له الأمان، توقف والتفت إلى الوراء وأطلق شتيمة: «يا طحاااااان.. يا أَفْقَيْرَة.. يا طحاااان.. يا أَفْقَيْرَة.. يا طحاااان.. يا أَفْقَيْرَة..»، انفجر على إثرها ساسوكي بالضحك وسرعان ما انتقلت العدوى إلى بقية أعضاء المجموعة التي برفقته.

بعد أن عاد الوضع إلى طبيعته، اتخذ ساسوكي موقعه السابق، وبينما كان يحدثهم عن الأبنية التّراثية في الحي والمخاطر التي تهددها، انضمت امرأة متوسطة العمر إلى الحلقة على يمينه مباشرة، بدت في نهاية الأربعينيات من عمرها وكانت ترتدي معطف كاشمير أرجواني اللّون، وبينما هي كذلك بدأ ساسوكي يتفحصها من زاوية عينيه. من دون مقدمات باشرت في الحديث، قالت السيدة إنها شاركت في هذه الجولة لتتذكّر المكان الذي كبرت فيه والدتها، لكنها اكتشفت أن البيت قد تم بيعه وقد شيّدت مكانه بناية ضخمة بلا هوية. التفت إليها الجميع وبدأ بعضهم يسألها: «أين يقع البيت؟». تخبرهم أنّه في حي لاكولون وتشير بيدها إلى الأرض قائلة: «قبل سنة اكتشفت أن مكان المنزل استحال إلى مساحة من الأرض تشهد عمليات حفر». ثم تشرح أنَّه على الرغم من أن المبنى معلم أثري من القرن الماضي فإنَّه هُدم قبل سنة بكل بساطة ولم يحرك أي طرف ساكنًا. فقد باعت معظم العائلات التي استولت على العقارات التي كان يملكها المعمرون في الحيّ تلك البيوت بسبب طمع الورثة.

بعد هذا الحديث عمّ الصّمت، حيث حاول المشاركون التّلصّص على البناية والبيوت المحيطة بها من خلال كوّة في الجدار، ويحاولون التقاط الصّور. فجأة، يرتفع صوت مواطن من على سطح أحد الأبنية معلناً منع التّصوير. يتلاسن مع ساسوكي. يزجره جاره ويغرق الاثنان في حديث جانبي وهكذا ينتهي الأمر بعجل دون توتر أكبر.

ولم تمض خمس دقائق حتّى لمحت كريم ولد خلفاوي يخرج من بناية تقع في وسط الزّنقة، غير بعيدة عن تمركز أعضاء المجموعة المشتتين تقريبا، تفصل بينهم بضع خطوات غير متساوية، كان منظره مريبًا بعض الشيء وهو يتفرّس في وجوه بعض السياح.

مكث لبرهة يتفحّصهم، الشرر يتطاير من عينيه وهما تحدِّقان في يديّ امرأة مسنّة قصيرة القامة، تعتمر قبعة أرجوانية اللّون وترتدي بلوزة أنيقة رمادية اللّون تضع عليها شالا أخضر، وبنطلونا أسود، وثمة حقيبة جلدية كبيرة تتدلى من كتفها إلى أن انطلق كالسهم صوبها، خطف منها آلة التّصوير كانون السّوداء اللّون، وفرّ هاربًا كالجرذ داخل الأزقة الضّيقة، اختفى عن الأنظار، كأن الأرض انفتحت وابتلعته. بينما بقي الجميع مندهشين، مصدومين، مصعوقين، واجمين في أمكنتهم من هول ما حدث للتوّ.

كنت في تلك اللحظات لا أزال أتابع من أعلى تفاصيل المشهد، أنقل نظري من موضع إلى آخر على امتداد أسفل الشّارع وما يظهر لي من مدخل الزّنقة المفتوح الذي يفضي إلى نهج فيليب؛ أتنقّل بين أعضاء المجموعة واحدًا بعد الآخر، ممعنة النّظر في تفحصّ ملامحهم وردود أفعالهم وأترقّب في الوقت عينه بفضول ما سيؤول إليه الوضع.

بضع دقائق من الانتظار فقط حتى ظهر من وسط نهج فيليب المطلّ على زنقة الطّليان عادل معنصري وهو يقبض بيده اليمنى على آلة التّصوير من حاملها الدّائري وبيده اليسرى يجرّ كريم ولد خلفاوي، كان يسحله.

لما اقترب أكثر، نزل كريم على ركبتيه وقد تجمدت أوصاله وأحس بضآلته أمام الجميع ثم بكى متمسكنًا كقط وديع وأمسك فمه بيده. رأيت خنجرا يسقط من جيب بنطاله، كان مقفلا، بلغ طول مقبضه عشرة سنتيمترات تقريبا، اقترب منه ساسوكي ركل الخنجر بعيدا عنه، ثم ركله على ظهره بقدمه وتوعده مُشهرًا سبابته أمام وجهه المتقلص ذعرًا.

اقتربت منهم صاحبة آلة التّصوير، توجهت إلى عادل الذي سلّمها غرضها، شاكرة ممتنة لصنيعه، ثم وضعتها من حاملها على رقبتها وتراجعت خطوات لتنضم من جديد إلى المجموعة.

أما هو فلم تبدر منه سوى ابتسامة صغيرة مفعمة باللّطف. يا إلهي، تمنيت لو كنت مكانها وأحظى بابتسامة منه. حاولت معه مرارًا وتكرارًا لكنه لم يلتفت لي. هو رجلٌ متديِّن ورع يخاف اللّه، كما سبق وأخبرتني به نجاة. كلما صادفته بقيت ألتفت إليه، كان في أوج شبابه، فارع القدّ، يبدو عليه مظهر سلطان لو كان في زمان آخر، شعره أسود فاحم، مصفَّف بإتقان إلى الخلف. أمَّا شفتاه فكأنهما خلقتا للتقبيل، وحاجباه مقرونان ببعضهما. إلَّا أن أجمل ما فيه عيناه البنيتان، كأنه نبيٌّ يستمد الوحي من الصَّمت والسَّكينة.

هذا الموقف أفسد الجولة ووضع حدًّا لها قبل أن تنتهي. ويبدو أنَّ المرشد لم يسمح بإتمامها كلّها، وهكذا انتهت أمام البناية التي أقيم بها، أين غادر الجميع يقودهم ساسوكي وعادت الزَّنقة إلى هدوئها المعهود.

وقفت أمام المرآة أبحث عن صورتي، يجتاحني خوف من ذاك الوجه الذي يحدق فيَّ، وجه غزته بعض التَّجاعيد، وجه أكثر اصفرارا وأكبر سنًا. وجه ينبئ بأن الحياة مستعجلة، وأن سنوات طويلة انفرطت من عقدي من غير رجعة. هالات قاتمة ومعتمة أسفل عيني، ثديان منتكسان وجسد منهزم ووجدان محطم وشعر بدأت تجتاحه الشعيرات البيضاء وبطن مترهل، ورقبة واهنة. صارت المرآة تضاعف

منسوب مخاوفي. لا أصدقاء لي سوى الجدران الباردة المتصدّعة ولا مُرافق يحدّثني عدا النّافذة. استحال الزمن في وحدتي وبطالتي إلى زميل غير مرغوب فيه، أحسب الدّقائق والثّواني بشكل عبثي، صار الوقت أكثر ضجرًا. تغيّرت طريقة إعدادي لوجبات طعامي، لم أعد كسابق عهدي. صرت محرومة من شمِّ عطور رجالي التي كانت تأخذني إلى عالم ساحر قبل أن تبتهج بها روحي وكأنّها ترسل لي رسائل قلوبهم النَّدِّية. لم أعد أرى العشّاق وهم يسرقون تلك اللحظات الهاربة من الزّمن المنفلت.

لا أتذكر آخر مرة صحوت فيها بمزاج رائق، فغالبًا ما كنت أستيقظ في وقت متأخر وبمزاج متقلب ومشاعر مبهمة لا تمنحني أدنى رغبة في الإقبال على اليوم الجديد ببهجة وحبور. لا أتذكر أنني حظيت بمشاهدة منظر شروق الشّمس طيلة ما مضى من سني عمري.

غالبًا ما كنت أستيقظ وحيدة، أرتدي ملابسي بكسل، أعدُّ براد القهوة بفتور، أتصنَّع الاستمتاع بالارتشاف من كوب القهوة ببطء. يحدث هذا معي بشكل يومي منذ زمن بعيد، ومن شدَّة تكراره بات الأمر عادة بالنسبة إليَّ، لا شيء آخر قادر أن يشكلّ لي أدنى فارق.

أما عندما اكتشف أن علبة البنّ قد نفدت، أقرر من دون تردُّد الذهاب إلى كافي دالجي، لا يبعد هذا المقهى على البناية حيث أقيم، إذ يقع على رأس الشارع المطلّ على رحبة سيدي شريَّط، والمحاذي لجامع الباي.

غالبًا ما أقصده وحدي، هناك حيث أتخذ موقعًا مناسبًا ومثاليًا بالنسبة إليَّ، أجلس إلى طاولة في الجهة الخلفية للمقهى، من وراء الكونتوار وغير بعيدة عن باب المرحاض.

بفضل هذا الموقع المثالي أحظى بمتابعة مشهد مرتادي المقهى والمارين بالشّارع من دون أن ينتبه لي أحد منهم. لساعات أبقى متأملة وجوه الرّجال المتعبة والمتأهبة والمتحفزة والممتلئة بالأمل أو اليأس، والمبتهجة والمترددة والحائرة. أستنشق الأبخرة المتصاعدة

من آلة صنع القهوة ممزوجة بسحب الدّخان التي ينفثها رواد المقهى وهم يلتهمون سجائرهم. حتى يفاجئني نادل المقهى بصدى صوت وضع الفنجان على الطاولة، أرتشف القهوة وأواصل التَّلصص والالتفات والنَّظر هنا وهناك. تهمني مشاهدة كل شاردة وواردة داخل وخارج المقهى.

ولم يحلّ منتصف النَّهار بعد حتَّى قفلت راجعة إلى البيت. كان مشهدًا مهيبًا ترتعد له فرائص الرّجال، مشهد عشرات رجال الأمن الموزعين في كل الزَّوايا بملامحهم الصارمة وحواجبهم المقطَّبة، وسكان الحي محشورون في زاوية وبعض رجال الأمن منهمكون في مطاردة رؤوف سكتة ابن علجية المدَّاحة، الذي واجههم بسيف من الحجم الكبير وسارع في قذفهم بالحجارة وقارورات الخمر، ما أضطر أحد أعوان الأمن المدربين جيّدا، كما يبدو من خفة حركته المباغتة، إلى استعمال سلاح كهربائي، شلّ حركته، ومن ثم تم توقيفه واقتياده مكلبشا إلى عربة الأمن غير البعيدة عن زنقة الطّـليان. جراء ذلك انتفضت علجية المدّاحة بشكل هستيري ونظرت صوب المكان الذي كان يقف فيه رئيس البلدية سي ناجي مسعودان، بينما كان يضع يده على قمة رأسه، يمسح بها وهو يضغط بعجل على شعره المتفرق والمنتفش بفعل الرّيح، يبدو وهو على هذا الشّكل ككلب أشعث وأجرب؛ فهذا الكائن الهيولي، اللدن واللزج له بعض الشّعيرات الطّويلة على جانبي رأسه، يرعاها ويحافظ على مستوى طولها، ثم يجمعها ويرتبها بعناية، وحالما يكون على أهبة الخروج من بيته يثبتها بجل الشّعر كي يداري بها صلعته الكبيرة المفلطحة كبطيخة صفراء اللون، يبذل قصارى جهده كي يتشبه بفخامة الرئيس المقعد في أبشع تمثلات الولاء ونكران الذات. ثم اقتربت علجية المدّاحة بضع خطوات منه، صارخةً في وجهه:

– قبل ثلاثة أشهر كنت هنا في هذا الحي، تتسوّل أصواتنا، كي ننتخب لصالحك. واليوم ها أنت ذا تقف بكل تبجح وبرودة دم لتطردنا من بيوتنا!

أجابها من دون أن يندى جبينه:

– أنا آسف، هذه تعليمات من أعلى السّلطات جئت اليوم لأنفذها، الأمر يتجاوزني، ما أنا إلا عبد مأمور.

ردت ممتعضة وبلهجة صارمة:

– تقول إن الأمر خارج عن يدك، وأنت يا عطاي من أمضى على قرار الطّرد!

قال المير بحدّة متظاهرًا بأنه لم يأبه لكلام المرأة:

– أنا هنا بينكم لتهدئتكم وإقناعكم بالرّحيل حتى لا تخرج الأمور عن السّيطرة وستستخدم في حقكم القوّة لأنّكم عرقلتم موظفا عموميا عن تأدية مهامه. هل تفهمون جيّدًا ما أخبرتكم به للتوّ؟ لذلك تنحوا جانبا.

شعر الجميع بخيبة أمل مضاعفة إزاء ما تفوه به الرّجل، بينما تلقى أغلبهم تحذيراته بلامبالاة. وبينما الجميع يحدجون في المير بنظرة احتقار ممزوجة بالاستغراب والذّعر، صرخ في وجهه عمي عبد المجيد كريَّم الشيخ المقعد، كانت شفتاه زرقاوين ويداه باردتين جدًا ووجهه شاحبًا وأبيض كأنه بلا دم، فيما بدت عيناه تترقصان من شدَّة التَّوتر، كان يتكلم وراحتا يداه تضغطان بتشنج على جانبي الكرسي المتحرك، حتى أن أطراف أصابعه بدت منكمشة. بعض من رجال الشُّرطة ذوي البنية القوية وفارعي الطُّول أزاحوا العجوز من مكانه.

إذّاك تسللت كاللّص إلى مدخل البناية، من دون أن ألوي خلفي، مع ضجيج أبواق عربات الأمن والصّراخ وبكاء الأطفال والنداب واللّطم لم ينتبه أحد إلى وجودي. صعدت الدَّرجات اللَّولبية هرولة، الواحدة تلو الأخرى، من دون أن أشعر وجدتني في الطّابق الأوّل عند باب الشّقّة حيث أقيم. دلفت المفتاح داخل ثقب الباب، أدرته ثم سحبته بعجل، أدرت مقبض الباب بيدي، دفعته بركبتي ودخلت وأنا أتنهّد.

تأمّلْتُ الغرفة ومحيط الشُّقَّة، كانت حجرة متهرئة، فكرت بحزن في مصيري المجهول، وكيف سينتهي بي المطاف خارج زنقة الطّـليان. سيطر عليّ لحظتها عدم اليقين والغموض واليأس. وقفت جاثمة أمام السَّرير الحديدي والفراش المبعثر من فوقه والمنضدة العالية والكرسي الخشبي خلفها، لم أقوَ على الحركة، عدا أنَّني جلست على طرف السَّرير في العتمة بذهن مشوّش، وانقباض وخوف مفرط من القادم المبهم.

وقفت فجأة ثم مشيت في أرجاء الغرفة كالمعتوهة، قصدت المطبخ وشرَّعت النَّافذة على مصراعيها، تسلَّل النُّور من الخارج. وقفت أمام المرآة، لمحت وجهي أكثر شحوبًا، اقتربت من المرآة أكثر لاحظت اتساع بؤبؤ عينيّ. سيطرت على عقلي فكرة سوداوية عن المستقبل، كنت ضعيفة جدًا إلى الحد الذي جعلني أستسلم للقلق من المجهول، ليست هناك فرصة لبقائي في هذه الشُّقَّة بعد قرار ترحيل ساكنة الحي، مصيري الطّرد المحتوم إلى الشّارع بعد أن تمّ توقيفي عن العمل، لا أستطيع تحمل ثمن الكراء في مكان آخر.

انتفضت، وقفزت كأن زلزالًا داخليًا هزَّني، لم تعد أي رابطة تربطني بزنقة الطَّليان، وجودي هنا، بهذا المكان، أشرف على النّهاية، الأمر صاعقٌ بالنسبة إليَّ ومخيب جدًا ولا شيء يدعو للتفاؤل. أشعر أنَّ ملامحي كلَّها مضطربة وهائجة، لم أكن آبه للأصوات التي كانت تصلني من أسفل البناية. لا جدوى من أن أحزم أشيائي، ماذا عندي لآخذه معي؟ حقيبة فارغة وملابس في الخزانة وبعض الأغراض التَّافهة، هذا كلّ ما في الأمر. لا حقائب تحزم، رحت أعبث بالأشياء في الخزانة وكانت جلبة الأصوات ما زالت تتناهى إلى سمعي من الشَّارع. كأنَّني بدأت أجن. خلال بضع دقائق أتيت على كل شيء في الحجرة والمطبخ. قلبت كل الملابس والأغراض رأسًا على عقب، نثرتها فوق الأرضية وأخذت أدوسها وأهرسها بكعب حذائي. ركلت الكرسي والمقعد وقلَّبت الطَّاولة والمائدة والموقد. رميت الصُّحون والكؤوس

والملاعق والأطباق والشُّوَّك والطَّقم والمقلاة والطَّنجرة والقدر وفتاحة العلب والشَّوْبك والإبريق والخلَّاط على الأرضية. والأغرب من كل ذلك، إذ أخذت وأنا ثائرة كالمجنونة أمزق الشَّراشف وأغطية السّرير والوسادة واللّحاف والبساط والسّـتار والسّجادة والمناشف بالمقص، وبسكين المطبخ الكبيرة، قطعت كل شيء إربًا منصري - حتى غطاء المائدة لم ينجُ-، وبعثرته في أرضية الشّقّة. بعد أن انتهيت من عملي هذا، لم ألبث أن خرجت.

نزلت درجات السّلم على وقع الصّدمة المفاجئة، رغبت في الصّراخ وأنا على أهبة الخروج إلى الشّارع، كانت حركاتي وكل نظراتي وملامحي بطبع المرارة، كأنّني أحدّق في الفراغ. الأمر أشبه بزلزال عنيف هزّ كياني كلّه. كنت صامتة ومستسلمة ومذعنة وساكنة، لم أتمكن من قول أي شيء كأنني بكماء، عدا أنّني كنت غاضبة جدًا ومرتبكة وضائعة كأنّني أصبت بالجنون. كنت أرتعش كأنَّني رأيت مشهدًا مروِّعا، رفعت يدي إلى الأعلى، لطمت وجهي، بدأت ألعن كلَّ شيء، ظللت أسب وأتفوَّه بكل الشَّتائم.

مشيت رويدًا رويدًا محدقة أمامي، كنت أخطو بحذر ولما أصبحت المسافة بيننا قيد ذراع، تحركت مباشرة نحو رئيس البلدية سي ناجي مسعودان، ظللت أحدقّ فيه، دفعته بكلتا يديَّ، كان الأمر أشبه بالمشهد المصوّر ببطء، ثم مرّرت يديّ المرتعشتين إلى أسفل القميص الذي كنت ارتديه، ثم رفعته للأعلى وعيناي لامعتان بالغضب، إلى أن نزعته، رميته على وجه الرجلّ الذي لم يحرك ساكنًا. ساد الصّمت. والهلع والفزع يملآن المكان.

بقيت بحمالة الصدر السّوداء اللون والجيبة الطّويلة الواسعة البنية اللون، وقد جنّ جنوني. وبحركة أخرى، أسدلت الجيبة إلى الأسفل، الآن أنا مكشوفة تمامًا، لم يعد يستر جسدي سوى قطعتين رقيقتين من القماش، انتهى بي المطاف إلى الجري في شوارع وأحياء المدينة عارية أمام خلق الله، وأنا أصرخ كأنّني ممسوسة.

II

نونو لارتيست

1

حين وصلت إلى بناية السونترال لم يخطر ببالي أن أستعيد تلك الفترة من أيّام حياتي الفائتة حيث عملت بزنقة الطّليان أو أن أصادف من يذكرني بها. ذاك اليوم كان شاقًا وطويلًا إلى درجة شعرت بأنّه لن ينتهي أو يمر على خير.

بمجرد أن دخلت إلى البناية لم أكن أتوقع أن أُميِّزها بين الموقوفين والمجرمين واللّصوص وجلبة بعض المسبوقين، أين كان الضّابط مقداد يطلق العنان لعقيرته بالسّباب والشّتم.

فجأة تغلغل إلى أعماقي إحساس بارد وأكثر ألما من أي إحساس آخر سبق وأن خبرته حينما لمحت الكابران جموعي وهو ينهرها بغلظة بكف يده الملحمة وحين نهضت منحنية وبظهر مقوّس مطلقة سعالًا حادًا وهي تجرجر قامتها المنكسرة، كانت ترتدي جلّابية بالية بفتحة عنق واسعة، من شدّة الأوساخ التي تعفرها بالكاد يظهر لونها الأحمر الآجوري، وشعرها المنفوش كساه بعض الشيب، وتحت الجلابية لا شيء، إلى درجة أنها كشفت عن نهدين متهدلين، إلى أن عادت وانهارت بُعيد لحظات كجثة فوق بلاط المركز البارد بعد أن اصطدمت بحافة الدّرجة الرخامية الأولى عندما أخطأت أصابع يدها الإمساك بالدرابزين، لم تنزف عدا أنها أصيبت برضوض طفيفة شبه زرقاء بالكاد ترُى على الجزء الأيمن من وجهها.

إذّاك استشاط جموعي غضبًا وراح يصرخ مجددًا ويركلها بما أوتي من قوّة ككلب مسعور، وتعالت في هذه الأثناء صرخات بعض بنات

اللَّيل ولصوص الأحياء المظلمة الجالسين على كراسي الانتظار وهم مكلبشون، منددون بالمعاملة الحيوانية التي تعرضت لها أمام أعينهم.

التفت إليهم الكابران ناقمًا ومزمجرًا بالتّهديد والوعيد، سكت الجميع، عدا شاب يبدو أنَّه ثمل، بقي منتفضًا وهو يلوك ويكرع كلامًا متذمرًا ويائسًا ينمّ عن خيبة مضاعفة بكلّ مؤسسات البلد الرَّسمية؛ الأمنية منها وغير الأمنية من دون استثناء.

وكان جموعي ينظر بطرف عينيه إلى الشّاب وهو يمسك بقبعته والزُّبد يتدفق من زاويتي فمه وسحاب سترته الزّرقاء الدّاكنة يظهر بعض شعرات صدره المتنافرة، بينما كماها مسحوبان بشكل يكشف عن مرفقيه المنتفخين كأنَّهما بالونين.

هذا الكائن خانته الوسامة بما ينفر كل من يرى ملامح وجهه، أكثر من ذلك تكرَّس في ذهني كلَّما صادفته بأنَّه لا يحمل رأسًا بقدر ما يحمل صهريجا فارغًا فوق كتفيه؛ وقد كنت في قرارة نفسي أنفر بشدَّة من هذا الكابران ومن محاولاته المستميتة في التَّقرب مني، دومًا كان يردد على مسمعي: «حضرات راني حربي تاع الصح، عوّل عليّ وزيد».

في حقيقة الأمر لم أعرف أجبن منه، غالبًا ما كنت أمسكه متلبسًا بالتَّنمُّر على المقبوض عليهم، لقد جرَّدته سنوات الخدمة الأمنية في فترة التّسعينيات من كلّ رحمة وشفقة، كان يفرغ شحنة غضبه على الضُّعفاء منهم فقط وكان يهاب تجار المخدرات والممنوعات ويرتعب من المسبوقين، ما يعرفه جميع زملائه بالمركز ويحوِّلونه إلى مصدر تسلية وتهكم في حكاياتهم وجلساتهم على الدّوام من دون أن يشعر أو ينتبه للأمر.

وسبق وأن انتبهت، وبالضبط في منتصف نهار يوم الأحد الماضي، لما اقتربت من طاولة ثلاثة أعوان يتناولون وجبة الغداء، لاحظت أنهم دخلوا في حالة من الصّمت بعد أن كان صخبهم يملأ

المكان، فيما تبادلوا بينهم نظرة تواطؤ تقول إنَّ هناك شيئًا مريبًا! وحالما جلست إلى طاولة غير بعيدة عن طاولتهم بدأوا يتهامسون ويتضاحكون بخبث، انتابتني لحظتها حيرة واستفهام بالغان لفهم ما كان يجري بينهم؛ حاولت تحت سيطرة ذلك الفضول الذي استبد بي بشكل مفرط أن أتبيّن الكلمات والعبارات التي كانوا ينطقون بها، أصخت السمع حتى أستمع لما يقولون.

– أنظر لصور السائقين وهم يحتضنون قارورات البيرة ويهمون بإفراغها في صناديق سياراتهم المركونة على جنب الطّريق!! قال أحد الأعوان وهو ينظر في شاشة هاتفه الذّكي.

أضاف العون الذي يجلس قبالته مستنكرًا:

– إنّهم مجانين، فهذا الحادث المروري الذي تسبب في انقلاب شاحنة محمَّلة بصناديق البيرة على الطّريق السّريع المؤدي إلى ولاية الطّارف، تسبب كذلك في وفاة السّائق ولا أحد منهم يأبه لذلك!

– يا إلهي انظروا إنّ هذا الرّجل الذي يهرول بصندوق بيرة وشفتاه تطلقان ابتسامة عريضة صورة طبق الأصل لزميلنا الجموعي الكابران!! أشار الآخر الذي يجلس على جنبه الكتف بالكتف بسبابته إلى شاشة الموبايل وهو يضرب على كتفه، وانخرط الجميع في ضحكة هستيرية.

2

ذلك اليوم لم تنتبه لي، بينما كنت أطلّ عليها من فوق، سمعتها تغني وسمعت صوت أحد الجيران يحيِّيها وهو يخرج، ثمّ سمعت الضّجّة التي أحدثها ورأيتها وهي تقبض بكلتا يديها على شيء لم أتبيّنه جيدا، وتحشره في علبة الكارتون الضيّقة، ثمّ سمعت صوت قدميها وهي تنزل الدرجات بأقصى سرعتها.

خرجت خلفها مهرولًا، كنت أتبعها، لحقتها إلى غاية أوتيل بلازا. كانت من شدّة استغراقها في التّفكير لم تتنبه لوجودي، فهي لم ترني على الرّغم من أني كنت على مسافة لا تتعدى عشرة أمتار منها.

كنت أتعقبها وألحق بها من دون أن أعرف ما تحتويه تلك العلبة التي بين يديها، وحينما أشعر بها تحاول الالتفات، أختبئ في لمح البصر خلف الناس أو أقف بمحاذاة البنايات إن كانت قريبة مني، بينما هي كانت تحثّ الخطى مسرعة، كأنّ شيئًا مهمًا في انتظارها، أو كانت خائفة تخفي شيئا ما عن الأنظار في تلك العلبة، ممّا أثار فضولي بشكل كبير، حتى أنّها لم تنتبه لي، رغم أنّها كانت تلتفت باستمرار للتّأكد من أن لا أحد يلحق بها.

ولم يحلّ المساء حتّى اكتشفت ما كان داخل تلك العلبة، وبالضّبط وقتما كان الجميع يسأل عن غياب مينوش ويبحث عنه على السّطوح وفي الأقبية والسّراديب. فيما بعد تكتمت عن الأمر ولم أخبر أيًّا كان بما شاهدت.

استغربت لصنيعها ولقدرتها على القيام بالأمر بدم بارد ومن دون أدنى تفكير في العواقب!

يا لها من محتالة..

سبق ورأيتها تنهر مينوش، كلَّما تندفع خارجة من الباب، وتراه نائمًا غير بعيد عن شقتها، تنفجر فيه: «أغرب عن وجهي، ابتعد من هنا يا ملعون...»، ثم تنتشله وتقذفه بعيدًا عنها، باتجاه السلَّم، ويسقط المسكين متدحرجًا في الدَّرجات. بينما هي ترحل صافقة الباب من خلفها، وبعد مغادرتها يعود مينوش مترنحًا يمشي الهوينى إلى الطَّابق الأعلى، يقف بالقرب من شقة جلال الجورناليست ويروح ينظر إلى الباب الموصد منتظرًا عودة صاحبه.

ومرّة أخرى لمحتها عندما عادت من عملها عصرًا، وقبل أن تفتح باب شقتها، أبعدت مينوش غاضبة بركلة من قدميها.

في صبيحة اليوم التّالي من اختفاء مينوش، أيقظني صوت ضجيج. كان ضوء النّهار قد طلع، تناولت المخدة، وضعتها فوق رأسي وأغمضت عينيّ. عجزت عن مواصلة النوم. لما انتصبت خلف الباب، تناهى إليّ صوت مفتاح جلال وهو يدور في قفل بابه. حالما خرجت من الحجرة، تناهى إليّ وقع أقدام على الخشب، رأيت من فوق جلال الجورناليست يتصادف مع دلال سعيدي في سلم البناية، كما هي العادة منذ يوم إقامتي هنا، نحن الجيران نتقاطع دوما مع بعض. تمهّلت قليلا في أثناء نزولي الدرج. تطلعت إليهما وأنا أدقّق النظر، لمحت دلال متوترة قليلًا وغريبة بعض الشيء. وفي اللحظة التي هممت فيها بالاقتراب أكثر، بادرها جلال بالحديث، ومن حديثه معها استنجت أن المسكين اعتقد أنّها متضايقة وحزينة جراء الاختفاء المفاجئ لمينوش، الذي لم يتوقعه أيّ أحد كما أردفت دلال سعيدي في ردها على جلال. ومن خلال حديثها المقتضب معه، فهمت أنّها كانت تتفاداه أو يرجح أنها تحاول التهرب منه.

لاحظت فيما بعد أن وقع خبر اختفاء مينوش كان ثقيلا على جلال وشعرت كذلك بأنّه عكر عليه صفو أيّامه!

تبدو لي من خلال الملابس التي كانت ترتديها ونبرة صوتها وطريقة مشيتها، أنَّها مصابة بهوس محاكاة السيدات البرجوازيات، الأنيقات، المقيمات بأحياء الماجستيك وواد القبَّة وليكرات، مصرّة على التَّشبه بهنّ بشكل يدعو للدهشة والغرابة في الوقت ذاته.

فلما تخرج من جحرها بحي شعبي يقع في لابلاص دارم، في العمق داخل شبكة أحياء، متآكلة مبانيها ومفتتة حجارتها وأزقة صغيرة أشبه بالمتاهة وممرّات ضيقة وقذرة تشقّ داخل قلب المدينة العتيقة، أقدم منطقة في عنّابة، بركامها وفضلاتها المغبّرة، وفتات أبنيتها التي تذوي هرمة بين الحين والآخر، ألواحها الخشبية تآكلت وهوت وسقوفها الكثيرة سقطت، معلنة أنّها فقدت قوتها التي كانت، وما عادت مفاصلها تقوى على التّحمل والاحتمال.

ثم لا تلبث وأن تعود إليه في نهاية النهار، فهي لا تدرك أنّها تعيش وسط أناس بسطاء ينحدرون من عمق المجتمع، بما ينضح به هذا القاع من فقر وبؤس وبساطة وعفوية وتضامن وعنف وتعاون وطيبة وكلّ المفارقات التي تجد في تلك الأمكنة بيئة خصبة لها.

هي مجرّد امرأة وحيدة تسكن في زنقة الطّليان، لا أبناء يقاسمونها شقتها ويبهجون أيامها، ولا زوج يحنو عليها ويقاسمها أعباء وتكاليف الحياة. أحيانا لما أقف أمامها، تقابلني امرأة بدينة، مشوّهة القوام، قصيرة ومتهدلة، وخداها غير متماسكين، ويظهر لي شارب طفيف يحيط بطرفي شفتيها. ضعيفة ومنهزمة أمام المرطبات والحلويات بشكل صادم، لا تخفي نهمها وشراهتها وهي تتناول الطعام ولا يهمّها مطلقًا أن تخضع لبرنامج حمية أو تمارس بعض التّمارين الرّياضية.

دومًا ما كانت تختلق القصص، بين وقت وآخر كانت تروي حكايات كثيرة عن نفسها وتطلعني على سلسلة من الأحداث

المتضاربة وغير المنطقية عن حياتها، لا يقبلها منطق ولا عقل، فقد كانت يومًا تؤكد لي أن أصولها من أشراف الشام وتخبرني في اليوم التّالي أنّها مغربية الأصل من سلالة العلويين ثمّ تضيع البوصلة منها لتعترف لي بأن نسبها يعود إلى آخر السّلاطين العثمانيين: السلطان وحيد الدين محمد السادس. ومن كثرة الرِّوايات التي أخبرتني بها عن أصولها لم أعد أتذكّرها كلّها. وقد أخبرتني ذات يوم بأنّها ولدت في مدينة عنّابة وأنها كانت البنت الصغرى لعائلة ذات ثراء وجاه، وبسبب صعوبات اعترضت عائلتها، انقلب حالها إلى ما هي عليه. كما اكتشفت لاحقا أنها غيّرت اسمها الحقيقي، وأن اسمها المدوّن في البطاقة هو حليمة وليس دلال وأنّها من مواليد منطقة تدعى السوارخ تابعة لولاية الطّارف وأنّ عمرها ثلاثة وأربعون عامًا وليس ثلاثين عامًا كما كانت تتشدق دومًا!

دومًا كُنت أحتار في تلك القدرة العجيبة التي تمتلكها والتي تمكّنها من حَبْكِ ردود مقنعة عند مباغتتها بأسئلة أو استفسارات. لكن مع تعمّق معرفتي بها، أصبحت ألحظ في نظرات عينها الزائغة، عجزها وتلعثمها وجملها المبعثرة وغير المتناسقة الكلمات، والأحداث التي لا روابط بينها. أصبحت أرى كل ذلك التشتت والضَّياع الذي يجتاحها في حدقتي عينيها وليس في ما يلفظه لسانها.

وما كان يحيّرني أكثر ولم أملك إجابة له إلى غاية اليوم، ما الدافع الذي يجعلها تُقْدم على تلك الأفعال والسلوكيات؟ وعمَّا يبعث فيها هذا الفعل الشائن من أحاسيسَ ومشاعرَ خصوصًا أنَّها كانت في غالب الأحيان غير مضطرة للتفوّه بتلك الأكاذيب ولم تكن قَطُّ في موقف محرج يدفعها للنطق بتلك التّرهات البعيدة عن الحقيقة كل البعد. من الاستحالة فهم امرأة بهذا الشّكل، كما لا يمكن قبول أنثى بهذا القدر من المكر والإتيان بالحيل بدون مبرر أو مسوّغ قد تستدعيه الحاجة.

يبدو أنّ المراوغة أضحت العمل الأساسي الذي تجيد القيام به!

هل أنا لا أطيقها إلى هذا الحد؟

عندما التقيتها أوَّل مرَّة، لم أعتقد أنَّها بكل هذا السوء. أما عندما التقيتها آخر مرة في مقر الأمن المركزي، أشفقت عليها وآلمني مظهرها، كانت مجرد شبح امرأة، ترتدي أسمالًا بالية، لم أرَ حتى ملامحها، التي عهدتها من شخصيتها القويّة وروحها المحبّة للحياة. رأيت فقط ضياعها وابتسامتها الباردة ونظرتها الجامدة وانكسارها وروحها الشّاحبة.

ما أن تصادفني في السّلم أو عند مدخل البناية، أو ألمحها عابرة في أزقة المدينة العتيقة، إلا وتضطرم في مخي تلك الأفكار بشكل مربك، لا أستطيع كبحها أو التّخلص من سيطرتها على ذهني، إلاّ اللّحظة حيث انزوي في إحدى زوايا حجرتي، مفكِّرًا في حلّ تلك المسألة التي قذفت بي إلى هذا الحي الشّعبي القديم وفي هذه البناية البالية حيث طلاء الجدران متقشر والصّراصير والرَّائحة العفنة، أين يستحيل عليّ التّفكير في أي شيء آخر عداها. حيث أمام تلك المسألة أرمي بكل الأفكار الأخرى وراء ظهري، تتلاشى من أمامي دلال تدريجيًّا إلى أن تغيب.

3

كان صغيرًا ومعتدًا بنفسه الأمَّارة بالسوء بشكل كافٍ، ومتعاليًا ومشاغبًا ومتطاولًا على رئيس البلدية سي ناجي مسعودان ورجل الأعمال المعروف حمّة طُلبي، كي يدرك أنّه كان في مواجهة سلطة متجبرة ومخيفة ومستبدة. هو من شجع بعض أبناء لابلاص دارم على المقاومة، فقد أوقد الشّـرارة الأولى لإحداث الشّغب والعنف، بأحاديثه الكثيرة التي كانت تدور أغلبها في المقاهي، بما كان يتمتع به من قبول وتقدير كبير بينهم وما له من مخيّلة وثقافة وذكاء وحماس.

لقد منح هؤلاء الشّـباب دعمًا لا يضاهى وثقة بالنَّفس، إلى درجة أنَّهم كانوا مسحورين بشخصيته. كما كانوا يلتقون به بانتظام في شقّته أو في شقة هذا أو ذاك. كان يسبق المناقشة وجبة مقتصدة عادة من المحاجب التي يقتنيها من محل عمتي صليحة، أو الفوڤاز من بيزيرية إبراهيم بومزايد الجيجلي، والمشروبات الغازية والقهوة، وهناك من كان يستمع للنقاشات غير أنّه لم يتدخل قط. كانت مناقشاتهم تدور في أكثر الأحيان في أماكن خارجية أو في المقاهي وأحيانا كان جلال الجورناليست وشاب آخر من المجموعة يلتقيان في مقهى ثلاثة وعشرين المجاور لجامع الباي وفي أحيان أخرى كانوا يتمشّون على أطراف المدينة العتيقة وفي أزقتها الخالية أواخر اللَّيل. ثمَّ إنَّ هذا الصحفي البسيط، أعدَّ قبل فترة برنامجًا إذاعيًا، قلّب عليه زملاءه وترك أثرًا عميقا في نفوس أغلب من استمع له. طرح البرنامج

على راديو عنَّابة الجهوي انشغالات ساكنة المدينة العتيقة لابلاص دارم، وانتقادات لسلوكيات يومية، اسم البرنامج «مُخ الهدرة».

كيف يشهر سيف العصيان والتمرد والرفض في وجه الامتثال لقرارات السّـلطة المحليّة وهو القادم من مدينة داخلية تخضع للعادات والأعراف والقسوة وشظف العيش والطّاعة والخنوع والولاء وطأطأة الرأس!؟ فدفع لوحده ثمن الاختلاف وقول المنكر بشكل فجائعي وعبثي وعدمي. أتذكر كيف كنت أسمعهم في المقهى ينتقدون انتقادًا ساخرًا السَّيِّد رئيس البلدية ويتظاهرون بأنّهم يفقهون في كلّ شيء ويأخذ كل واحد فيهم دوره في انتقاد مشاريع وممارسات سي ناجي مسعودان وحمّة طُلبي وكأنّهم وحدهم المخولون بإصلاح العالم. إضافة إلى ما كان يقوم به عضو آخر، يدعى فيصل بونخلة من انتحالات مرحة لشخصيات ينتمي أغلبها إلى المجلس البلدي أو إلى المجلس الولائي. انفضت الحلقة وتبعثرت الأحلام وحلّ الموت الصاخب والباهت في الوقت عينه والصّمت البهيم واليتم كمصير حتمي تغلغل في دروب وجادات وأحياء لابلاص دارم وسيطر الخوف والخنوع والتّـفاهة على عقول وأرواح النّاس من جديد.

أُوقِفَ جلال بعد عودته من العمل، قرب البناية التي يقيم بها في زنقة الطّـليان. في الحقيقة كنت أنا من كشف أمره، من خلال مجموعة من التّقارير، كتبتها عنه وعن تحركاته المشبوهة، وأودعتها قبل أشهر لدى قسم الاستعلام في السونترال لتكليف من يستكمل متابعته، لما اكتشف الأمر على سبيل المصادفة، في أثناء عملي على استقصاء المعلومات حول شبكة سرية من أتباع الطّـائفة الأحمدية تنشط في المدينة العتيقة، كانت عملية عسيرة بالمحصلة، لكنني نجحت بتفكيك تلك الشّـبكة. لكن في النّهاية غلبتني الصّدمة وأنا أقرأ الخبر الأول على صحيفة «آخر ساعة» المحلية، جرّاء إعلان محامي جلال الجورناليست عن خبر الوفاة، بعد قرابة شهرين من إضراب جلال عن الطعام، وكشف في إعلانه على الصّحيفة ذاتها:

«أن لا أحد كان يأبه حيال تدهور حالة جلال الصّحية، ودخوله في غيبوبة، وربّما تعرضه للتعنيف. ورجّح أن تكون آثار الجروح البارزة على رأسه بسبب محاولة إرغامه على الأكل». كان الرحيل مفاجئًا وصادمًا لذاك الذي شيّع أمس إلى مثواه الأخير وحضرت جنازته مع مئات من النّاس ودفناه في مقبرة زغوان. لم آبه بخبر آخر نشر بالبنط العريض في نفس الصفحة حول مسارعة المنظمات الدولية كـ «منظمة العفو الدولية» و»مراسلون بلا حدود»، إلى إدانة الحدث ومطالبة السّلطات الجزائرية بـ«ضرورة فتح تحقيق عاجل وشفاف». فهؤلاء يضعون السمّ في الدسم ويتاجرون حتّى بالأموات.

نجاة أو ناجي الرجلة

1

حينما أخرج إلى طاولتي، لا أحد من سكان المدينة العتيقة المحيطين بي، يعرف أنّني مرمية في الشّارع، مشرّدة، إنّه أمر مؤسف تمضيّة كلّ ذلك الوقت من اللّيل بلا سقف، أبيت اللّيل كلّه بمفردي أتسكّع في الشّوارع والأزقّة الضيّقة الخالية من المارة وأرتقي الدّرجات المهجورة والمظلمة، مسرعة ومهرولة، أشياء كثيرة مرمية ومبعثرة في الشّارع، علب البيرة المعدنية وقارورات زجاجية خضراء وعلب الكرتون المكدسة أو التي داستها الأقدام ملقاة على الأرصفة وبمحاذاة المتاجر، أغراض مكسورة أو مهشمة، قارورات بلاستكية مليئة بسائل أصفر، تفوح منها رائحة البول. أكياس القمامة السّوداء. حتى أصل إلى مفترق أربع طرق في عقبة الحصان.

كنت أحيانًا لا أتوفر على عشاء ليلة. خمس عشرة سنة وأنا أنام في الخارج، بلا مكان واحد للنوم، نمت في الزّقاق، ونمت كذلك بجنب مقهى، كما نمت بمحاذاة مركز الشرطة، لا بيت يؤويني. ما كنت أخشاه لحظتها هو تعرض أبناء الحرام لي. الليل يخرج الأشخاص شديدي الخطورة من أوكارهم وجحورهم، دخلت معهم في العديد من الشجارات العنيفة. الله فقط يعلم بي.

ذات يوم وجدتهم هدّموا بيت الصّفيح وأخذوا وثائقي ومالي المخبأ وحتى ملابسي.. أخذوا كلّ شيء. أصبحت في حالة يرثى لها. كان يومًا باردًا، مريبًا. طبعًا، لم أسكت لهم.. كنت يوميًا اذهب إلى مكتب المير سي ناجي مسعودان، محتجة، فلم أتوقف عن البكاء

والصّراخ والنّحيب، حتى استرجعت ما أخذوه مني. أعيش وسط الرّوائح القذرة. لا حياة لي. الموت بالنسبة إليَّ أفضل من الحياة. منذ أن طردتني زوجة أبي. انتهى بي المطاف متنقلة من مكان إلى آخر. وإن متّ سأموت وحيدة. من سيدفنني؟ أحلم أن يكون لي بيت. لا يجوز لي أن أحلم بغرفة، بأربعة جدران، وباب يمكن أن يغلق!

لا أحلام لي.. الأحلام التي رسمتها كلّها ذهبت هباء. إبان فترة التّسعينيات كنت أمتهن الغناء، وبعد تعرض صديقاتي سلوى ومريم وليندة وبوبا الدرابكي للقتل، رحمهم الله جميعا، على يد الجماعات الإرهابية المسلحة، مذّاك توقفت عن الغناء. كانت أسوأ الأوقات، الشك، الظلمة، اليأس. لا شيء أمامي، الحياة حقيرة جدًا. كنت متجهة نحو الجحيم.

أنسى نفسي عن قصد، فلا أهتم لا بشكلي ولا بزينتي. ولا أضع أي لمسات جمالية على وجهي. فالأمر جائز في مجتمع متوحش أن تتحول الأنثى إلى كائن خالٍ من العواطف، تتصرف بخشونة وقوة بعيدة عن ملامح الأنوثة، وخاصة مع الرجال. ومع كل ذلك أنا امرأة تمتلئ بالحزن وبداخلها جراح لا تندمل. وهذا الجرح والألم والانكسار جعل مني امرأة قوية وهشة في ذات الوقت. الأمر بالنسبة إليَّ لم يعد مقتصرًا على الملبس وحده، فقد كنت أيضا أجتهد في التحدث بصوت عالٍ، وتحولت مع مضي الوقت إلى شخصية مجادلة معترضة على كل الأمور. أميل إلى الخشونة، فظّة في المعاملة وعنيدة.

لا أقرب أبدًا من الحناء والكحل وأدوات الزينة. كنت مداومة على قص شعري، أجتهد في أن يكون ذلك عند حلاق الرّجال، كي أبدو في قصة شعري أشبه بقَصَّة الرَّجل. كما كنت مُتخذة هيئة الرَّجل في وقفتي وجلستي ومشيتي. لا أؤمن بأي حدود ولا أعترف بشيء اسمه الحياء، بل غالبًا ما كنت أسخر من كل شخص يخجل ويندى جبينه من شدة الحياء وأعتبر ذلك سمة تميّز النّساء والفتيات دون غيرهن. دائمًا ما أرتدي القمصان الواسعة الفضفاضة، وأحذيتي قريبة الشَّبه

من أحذية الرجال، وصوتي عالٍ وخشن، وحين أضحك أو أتكلم، أقوم بذلك بصوت عالٍ. لذا تجدني مع كل ذلك متباهية، متفاخرة بخشونتي وشرسة، كي أستطيع الدّفاع عن نفسي من المجتمع الخارجي. فأصبحت أشعر بالراحة مع تكويني الرُّجولي، حيث أبذل قصارى جهدي كي لا تظهر معه أدنى علامات الأنوثة.

العيش في هذا الزَّمن يحتاج إلى شيء من الصَّبر والتَّأمل، لكي يستمر الواحد منا ويعيش على أدنى حد ممكن من الكفاف، ولهذا فالعمل في طاولة الشاي هوَّن عليَّ الكثير من الأمور. ليس بالأمر الصَّعب بالنسبة إليَّ، خاصة أن كلَّ ما أقوم به من عمل لا يتطلب جهدًا أو رأس مال كبير، يتم عبر إمكانيات بسيطة ومتاحة، لكن العمل تحت الإحساس بالضغط والرُهاب من الغد، هذا المجهول اللعين الذي حيرني وسرق النوم من عيني، هو الأصعب. والأفظع من كل هذا، هو أن تجد نفسك وحيدًا بدون عائلة، ألا تستطيع رؤية كلّ من تحبهم، أو تعانقهم، أو تقوم بكل الواجبات الاجتماعية التي يقوم بها كلّ خلق الله، حتى لدى الحيوانات تلك الغرائز لا غنى عنها. إن هذا الأمر بالنسبة إليَّ شبيه بالموت وبالحياة.

الحياة.. الموت.. الحب، كل شيء تغيّر في حياتي بعد كلّ ما خبرته وعشته من مآسٍ، ومع ذلك حاولت أن أقاوم بإيجاد عمل أشغل به نفسي. حاولت من خلاله ترتيب أيامي ولياليّ، ودومًا كنت أحاول وسط تلك الفوضى التي تحوطني من كلّ الجهات -بسبب عجزي وقلة حيلتي- أن أجابه ذلك بالسخرية مما صرت أعيشه.. فالحياة الحقيقيَّة سرقها مني الشَّارعُ المتغوّل، وسرقتها ظروفي القاهرة قبل ذلك. مع الوقت تدربت مكرهة -على غير سجيتي- على ارتداء أقنعة يقتضيها التّعامل مع النّاس، حيث يعيش قطاعٌ واسعٌ من السّاكنة متأقلمين وبكل أريحية في عالم مليء بالنّفاق والزّيف والكذب. لأنهم تعوّدوا على تمضيّة الوقت في أحاديث طويلة ومكرّرة وغير صادقة عن بطولات وهمية، ينسبون لأنفسهم أمجادًا وانتصارات

كاذبة ولا وجود لها إلا في مخيلتهم الخصبة معتقدين ربما ألَّا أحد على الإطلاق سيكتشف كذبهم وخداعهم. علّني كنت منخرطة في اللعبة إلى أقصى حد، لا أتبرم أبدًا، وطنت نفسي على الاستمرار في التّظاهر لغاية بلوغ نهاياتها. وبعد كل هذا العمر، فأنا موقنة أني قضيت شطرًا كبيرًا من عمري في كلام هامشي فارغ من أيّ معنى. كما اكتشفت متأخرة أنني لم أعش الحياة كما عاشها غيري، بقدر ما أدركت أيضًا كم كنت مجرد رقم أو اسم مهمل تخلى عنه الجميع كخرقة بالية أو كغرض تافه لا يحتاجه أحد ولا يصلح لأي شيء، بينما يعيش الآخرون الحياة بملء ما تتسع من بهجة ومتع مع أحبتهم وأقربائهم، يستمتعون بها لحظة بلحظة من دون أدنى إكراهات قد تقض مضجعهم أو تفسد عليهم متعتهم. لحظتها أيقنت بمرارة إنّني عبرت بجانب الحياة الحقيقيّة! متوارية في الهامش، كنت في الظّل وحيدة ومتروكة لمصيري. دون أن أحظى بعيشها أو أترك أي أثر خلفي أو أخلف من سيسأل عني أو يذكرني بخير. حتّى دلال سعيدي التي اعتادت أن تمرَّ عليَّ بين الحين والآخر، نتبادل أطراف الحديث ونعرج على بعض الأسرار، ونطلق العنان لضحكاتنا المجلجلة، في أثناء أوقات عملي في طاولتي الخاصة ببيع علب السّجائر والحلويات والفول السوداني. لم يسبق وأن زارتني حيث أقيم، أو سألت عني في أثناء غيابي، ولا حتّى مرّة واحدة. على الرّغم من أنّ لها مكانة خاصة لديّ، ولكن لا أعتبر صداقتنا ترقى إلى درجة أن أحسّ بها إلى جانبي في السّراء والضّراء.

لا صديق ولا حبيب ومرافق لي سوى قططي، لا أحد يعلم إن كنت ميتة أو حيّة.

أعيش في بناية متهدمة مع قططي، في زاوية قبو امتلأ بالركام، أنام وآكل وأتبرز فيها، سطوت عليها بعدما تمَّ حجز بيتي القصديري والسطو على محتوياته.

القطط وحدها التي باتت تفهمني وأفهمها، أعرف ما تقوله عندما تخرخر: «من فضلك ابقي ساكنة وانتبهي إليّ»، أو عندما ترغب في المداعبة أو حين تحاول إخباري بأنها مريضة أو كنداء طلب استغاثة، كما أفهم صغارها حينما تخرخر لإقناع أمهاتها بمواصلة إرضاعها والاستمرار في رعايتها. كما أفهمها حينما تموء محاولة جذب انتباهي وقتما أكون منشغلة بغرض ما أو عندما أحدق في الفراغ. في حين تشير لي من خلال آذانها المسطحة وارتعاشة ذيلها بأنّها قد نالت كفايتها، فأدعها تبتعد. كما أفهما حينما تشعر بالإحباط والسّأم والتّوتر وأعرف كيف ألعب معها لتبديد وتخفيف توترها. وحين تمضغ فراءها، أعرف بأنَّها منزعجة من حكَّة في الجلد جراء البراغيث أو جروح طفيلية أو بسبب بعض الحساسية.

أشعر بعاطفة قوية تجاهها، خاصة عندما تحييني بحك فروتها على ساقي وتعبّر لي عن عاطفتها لأنّني أعتني بها، فهي بذلك تعبر لي كم أنا ودودة معها. أشعر براحة كبيرة عندما تكون القطط في الجوار، فهي تخفف من هول الوحدة والمعاناة والألم. لم تكن لديّ عائلة، لذلك كانت هي عائلتي وكل شيء بالنسبة إليَّ، كنت أرعاها وأوفر لها الطَّعام والشَّراب، فكما أكلت، أكلت معي، خضراوات أو حليب أو خبز جاف أو شعيرية. أغدق عليها بالمحبة والعطف لأنّها تشاركني الأيّام الحلوة والمرة، الألم والفرح، والكثير من المخاوف. ومداعبتها تعدّ متعة كبيرة عندي. كما صنعت لها صناديق كرتونية كمكان لنومها.

جلال الجورناليست

1

أمرّ بالبناية التي كانت مستغلة من قبل البلدية، أواصل المشي إلى أن انعطف شمالا إلى الزنقة المؤدية إلى مسجد صلاح الدّين الأيوبي، قبل أن ألج ذلك الزّقاق يقابلني «مقهى الوفاء» في الزاوية، ادخل المقهى من دون تردد.

كل الرؤوس مشرئبة إلى الشّاشة المعلّقة في أعلى الحائط، الطّاولات متزاحمة، الصّراخ والضّرب على أسطح الطّاولات المغلفة بغطاء بلاستيكي سميك طبعت عليه معالم برج إيفل وبرج بيزا، صوت قطع الدّيمينو وهي تحتك وتتقافز بين راحة الأيادي والأصابع، فوق الطاولات صندوق خشبي صغير خاص بقطع الديمينو، عليه خربشات ورسومات بالقلم الأزرق، هناك من يمسك بقلم ويخط به على ورقة رقيقة مخصصة للحلويات نتائج اللعبة. وسط كل ذلك صوت المعلق الرياضي يصدح حماسة.

يلعبون الدّيمينو، يرتشفون القهوة أو الزّنجبيل أو الشّاي، يقضمون الكرواسون أو الكركون، أو السابلي، أو الكعك المنزلي بالشّكولاتة، يشربون الموناده أو الفيشي أو المياه المعدنية، يتحدثون فيما بينهم، تتعالى أصواتهم وصرخاتهم مع مراوغات وركلات محرز.

باب المرحاض الخشبي من خلفي، يفتح ويغلق باستمرار، أفتح الكيسين الورقيين اللذين جلبتهما معي، أخذ حبة الشوصون، أبدأ في التهامها، ثم أشرب من كأس الحليب الممزوج بالقهوة، إلى أن آتي

على آخره، أمد يدي إلى حبة الميلفاي، أبدأ في قضمها كفأر ما زال لم يسكت جوع بطنه.

بين الشَّوطين، تتتالى مجموعة من الإعلانات الإشهارية المقيتة، سرعان ما نشاهد البلاتوه التّلفزيوني؛ منشط رياضي ومجموعة من المحللين يعلقون على الشَّوط الأوَّل، من خلال إعادة الصُّور من المقابلة.

غير بعيد عني شاب واقف على رأس أربعة متبارين جالسين إلى طاولة الديمينو، يتابعهم وهو يدخن سيجارة منتهية تكاد تصل إلى العقب وهو يأبى أن يتخلى عنها. فجأة ينتفض شاب آخر يرتدي سروالًا أبيض اللون وسترة ليلكية، غاضبًا على نتائج اللعب، سرعان ما يأتي النّادل، بخفة يد يحمل الأكياس من فوق طاولتي ويأخذ الكأس الفارغة والملعقة من أمامي وكأنه متدرب سيرك، ثم يرجع لمسح الطَّاولة ويستأذنني في أخذ قطع الديمينو من أمامي، يضعهم بعناية الواحدة تلو الأخرى في الصندوق المخصص. يسألني مرة أخرى مشيرًا إلى القلم على الطاولة إن كان لي، أجيبه بالنفي.

الحركة في الممرات التي لم تلتهمها الطاولات لا تكاد تتوقف، سحابة دخان تملأ المقهى، في أعلى الجدار الذي على يميني نافذتان مسيجتان بشباك حديدي وفوقهما مكيّفان، على جانبيهما ثلاث مراوح هوائية، أسفل النافذة الأولى خمسة صفوف من صناديق المشروبات وضعت فوق بعضها وعلى يساري مرآتان كبيرتان وبينهما كادرات صور فرق رياضية، أعتقد أن إحداهما للفريق الوطني الجزائري والأخرى للفريق المحلي اتحاد عنّابة. أعلاهما أضواء النّيون الأبيض السّاطع، كما هي موزّعة على باقي جدران المقهى وعلى السّقف كذلك. على الجانب الأيمن لباب المقهى ثلاجة مليئة بأنواع المشروبات الغازية والعصائر وقارورات المياه المعدنية الصّغيرة، فوقها قفص داخله طائر الحسون.

مرة أخرى ترجع صورة الملعب على الشّاشة، يبدأ الشّوط الثّاني من الدّوري الانجليزي، ثقافتي الرّياضية ضعيفة، التفت على جانبي

الأيسر، شاب يبدو في الثّانية والأربعين، أسأله عن الفريقين، يخبرني أنهما مانشستر سيتي ومانشستر يونايتد. أجواء المقابلة أشبه بمناخات الحروب، المنافسة على أشدّها.

دخلا معًا، الأب والابن. كالعادة الساعة تشير إلى السَّابعة وخمس دقائق. الابن يتأبط ذراع والده ويقبض على حبَّة مندرين. يجلسه والده إلى أقرب طاولة شاغرة. ثم يتوجه إلى فترينة الحلويات والمرطبات المحاذية للكونتوار. يأخذ له القطعة ذاتها التي يطلبها ككل مرة.

بينما عينا الولد ترقبان وتتراقصان في الفراغ، في حين ملامح وجهه الأخرى محايدة. يضع الأب الحبة ملفوفة بقطعة ورق في يد الابن. القضمة الأولى ثم الثّانية والثّالثة وهكذا إلى أن يجهز عليها كلها. بين الحين والآخر يغمض عينيه ويمضغ بقاياها العالقة بين أسنانه، وبلسانه يطارد ما علق في تجاويف فمه، إمَّا للاستغراق في متعة اللحظة وإمَّا لمضاعفة وإطالة الإحساس بلذَّة مذاقها لأطول وقت ممكن. مع ذلك يظهر وكأنَّه التهمها في لمح البصر.

يأخذ الأب منديلًا ورقيًا، بلفة واحدة يمسح شفتي ابنه وما يحيط بهما، ثم يطلب له كأس عصير برتقال. يشربه على نفس واحد. يترنح إلى الأمام ثم إلى الخلف بتتابع مدوخ، كدرويش يتهوَّل في حضرة صوفية.

يقترب مني الرّجل برأسه ككل مرة، فدومًا يجلسان إلى الطَّاولة المحاذية لطاولتي، يحدّثني عن مرض ابنه ومعاناته مع التّوحد وأنّ الأمر ابتلاء من الخالق، لا قدرة له إلا التّسليم أمام القدر، كما يردف بصوت هادئ ينمّ عن حكمة الصّبر أو عن محاولة ذاتية لتقبل المصير الذي لم يختره ولم يكن له يد فيه: «ماذا لو كان الابتلاء أن تكون ابنتي غير صالحة، ويرميها زوجها إلى الشّارع أو ترجع إلى بيتي؟ يا إلهي. الحمد لله هكذا ولا أكثر! الحمد لله على لطف الله بنا».

وفي مرَّات أُخر لا يتحدث الرَّجل أبدًا، كما أتذكَّر أنَّه أخبرني في المرات القليلة التي فتح فيها باب الحديث بيننا أن ابنه مريض بالتَّوحد وهو ذكي جدًا، أمُّه تستعين به في معرفة جودة طبخها، فابنه كما أخبرني يتذوَّق الأكل أو يشمُّه قبل أن يأكل ثم يقرر هل يأكل أم يمتنع، وفي حالة رفضه يظهر أنَّ الوجبة سيئة المذاق.

يقف الأب، يتوجه للكونتوار، يحاسب ويخرج برفقة ابنه وهو يتأبط ذراعه. الأمر ذاته يتكرر كل مساء في الوقت عينه، تارة في قبضة الابن فرع مورق من شجرة وطورًا حبّة مندرين أو برتقالة وأحيانًا عود صغير أو أيّ غرض آخر يمكن أن يتلهى به عند مجيئه أو فراغه من الأكل، إلى درجه الانشغال عن كل ما يحيط به. أحيانا يترك الأوراق منفصلة عن الفرع على سطح الطاولة، ما يدفع والده إلى جمعها ورميها في سلة القمامة أسفل واجهة صندوق الحساب وطورًا يسحب ذراعه من والده وينحني إلى الأسفل ليلتقط فرعًا أو غرضا يكون قد سقط منه.

حتَّى بات هذا المشهد لا ينفصل عن تفاصيل يومياتي، غالبًا ما أجدني بوعي أو بدون وعي أطيل التّفكير في تلك القصة؛ وبينما أكون وحدي تتتالى الصور قريبة من ناظري، فيما أنا منغمس فيها أشرع في استحضار تفاصيلها بذهن منتبه حتى أصبحت أنتظر قدومهما كلما أشارت عقارب ساعة يدي إلى السابعة وخمس دقائق، تجدني أترقب باب المقهى منتظرًا صاحب المعطف الطّويل، الرّجل حليق الذّقن، الهادئ السّمت، المقلّ في الكلام، وابنه، النّظيف والمشوَّش الذّهن والذي لا يكف عن الحركة والاهتزاز طيلة قعوده أو وقوفه، والملتصق بوالده، لا يكاد يفلت ذراعه، كأنه عضو أو ضلع من أبيه.

يتبيّن أنّ صاحب المعطف الطّويل في منتصف الخمسين، لا هو بالطويل ولا بالقصير، يميل نحو الاعتدال، ذو كتفين واسعتين بعض الشّـيء، رجل شاحب ذو وجه حزين؛ تظهر ملامحه وخصوصا نظرة عينيه أنه مثقل بالهموم وبأعباء الحياة، ومع ذلك فهو يحيط ابنه بشتى أنواع الرعاية دون أن يتضايق أو يتبرّم.

لم يمض وقت طويل على مغادرتهما، وحدي في المقهى اقلب أخماسا في أسداس؛ وبينما كنت غارقًا في تفاصيل حكايتهما الغريبة والمثيرة للفضول، إذ عمي حميد صاحب المقهى يطلب بأدب جمّ ممن بقي من رواد المقهى المغادرة لأنّه على وشك الإغلاق بعد ترتيب الطّاولات وتنظيف أرضية المقهى ويذكرهم كما هو ديدنه دوما: بأنه يقطن في ضاحية بعيدة، واذكر أنه لــمّا بادرني ذات يوم بنفس المبرر، سألته من دون تردد أو إحساس بفضول أو انتهاك خصوصية عن مكان إقامته فاستغربت حينما أجابني بنبرة ممزوجة بالتأسف والشكوى:

– «نسكن في الحجار..»!

والتي لا تبعد سوى ربع ساعة عن وسط المدينة!

أحيانًا عمي حميد يفقد أعصابه، خصوصا عندما يحين موعد غلق المقهى وتبقى الطاولات غير شاغرة ولا يأبه بعضهم لنداءاته المتكررة، فتجده يخاطب النادل بانزعاج ظاهر: هل هؤلاء لا يرغبون في المغادرة وتركنا نذهب بسلام لحال سبيلنا. هيا اذهب وأعلمهم بأن يتركوا الكراسي حالًا، من دون أن تمهلهم برهة زمن. من عادتي ألا أتبرّم أو أغضب منه، فقد وطّنتُ نفسي على تصرفاته وسلوكاته ومزاجه المتقلب.

دومًا ما كنت أشفق على الصبيين اللذين يشتغلان في الفترة المسائية التي تبدأ بمنتصف النَّهار، حيث يناوب هو. المسكينان يتحملان بابتسامة صغيرة ملاحظاته التي لا تتوقف وانتقاداته المتواصلة، وعينه على كل صغيرة وكبيرة، لا تغفل لحظة، فهو لا يصمت ولا يغضُّ الطرف عن أيّ هفوة أو كبوة، والخطأ معه غير مسموح ويقود إلى جحيم من اللَّوم والتقريع.

ففي العادة وبمجرد ما يخطئ معي في الحديث أو يفاجئني بردود غير متوقعة، امتلكت بحكم الخبرة أن أجيبه بهدوء وبمنطق، فسرعان ما يبادرني باعتذار عما بدر منه وبأنّه يحترمني ولي مكانة

خاصة عنده مقارنة ببقية رواد المقهى، ويستطرد بأنه لا يتحكم في نفسه، وما ينجر عنه من سلوك أو ما يتلفظ به من كلمات، لا يدل عما يكنّه في نفسه لي ويترجاني ألا أعطي اعتبارًا أو لا ألقي بالًا بما يبدر منه، فهو لا يتمنى لي إلّا الخير كما أردف معللًا ومفسرًا وعلائم الأسف بادية على ملامحه.

مع كلّ ذلك أخرج من المقهى وصورتهما لا تزال عالقةً في رأسي، يتعذّر عليّ ألا أفكر بهما وبما غاب عني من ظروف عيشهما وتفاصيل حياتهما وأهم الوقائع المرتبطة بكل ذلك... وكيف يؤمّن لقمة عيشه والمتطلبات الأساسية لأسرته، فما أعرفه عنهما يكاد يكون معدومًا، ففي النهاية ما أعرفه لا يتجاوز بضعة أشياء مكررة، سبق وأن ذكرتها. لكن ما السّبيل إلى إراحة الذّهن وكبح جماح ما يموج داخله ويتلاطم ويفور كبركان من الأسئلة التي لا أمتلك أجوبة لها؟ لا يعدّ ذلك تطفلًا مني وإنّما من باب المقاسمة والإحساس بمعاناة النّاس.

ولم تمضِ ربع ساعة تقريبًا من خروجي من المقهى حتى اتصل بي فيصل بونخلة. بدا مستعجلًا على لقائي. كان قد مرّت قرابة ثلاثة أيام على آخر مرة تحدثنا فيها بشأن قضية تهديم زنقة الطّليان. طبعًا الأمر ليس عن قصد، مرد ذلك ببساطة أنّني كنت مشغولًا بظروف مستجدة مرتبطة بالعمل، وبالضّبط بتعيين مدير جديد في إذاعة عنّابة.

كنت أقدّر فيه حرصه على الاهتمام بشأن ساكنة لابلاص دارم، فقد كان ناشطًا فعالًا ضمن مجموعة راك في لابلاص دارم، وكذلك كان عضوًا مؤسسا في جمعية مدينة.

سألته:

– أتمناك بخير

قال:

– الحمد لله، بخير. السؤال عليك.

أخبرته أنّني غير بعيد عن بطحة سيدي شريّط.

سألني إن كان ممكنًا أن نجمع الشّلة لمناقشة ما سنقوم به حيال قرار المير.

أجبت:

– نعم، لا مانع لديّ.

أجاب:

– بعد ربع ساعة نجتمع كلنا في مقهى 23.

كان جوابي:

– بالتأكيد، اجتمعوا أنتم بالمقهى وسألتحق بكم، فقط لديّ شيء أقوم به الآن، لن أطيل.

بعد عشرين دقيقة، دخلت المقهى. كان الجميع جالسين إلى طاولة في زاوية معزولة في آخر المساحة السفلية للمقهى. بمجرّد أن جلست، جاء النّادل يستفسر عمّا أطلبه. كنت أحدّق في الوجوه بينما كان النّقاش محتدمًا بين المجموعة.

قال فيصل بونخلة ممتعضًا:

– لم يعد في إمكان أحدنا، اليوم، التّفكير في أيّ موضوع آخر، خارج هاجس تهديم زنقة الطّليان، الذي سيطر على أفكارنا جميعاً وجعل جُلّ ساكنة المدينة العتيقة إمَّا مندهشين وإمَّا مصدومين أو خائفين من مصير غامض يفترس حيواتهم بشكل يومي. مساكين أولئك المقرر ترحيلهم بلا غاية منطقية، يتآمر عليهم رئيس البلدية ويستغل في سبيل ذلك كل السّلطات التي في يده. وها هو حمّة طُلبي، الجبري طلع عليه النّهار، وفاق وأصبح بقدرة قادر رجل أعمال كبير، هذا الكائن الهلامي المكوّر البطن أشبه بالزّواحف من ذوات الدّم البارد، يرغب في الاستيلاء وأخذ بيوت النّاس قهرًا. هؤلاء المساكين يطبّق عليهم قرار الطّرد أحياء أو أمواتا، ها هو عمي حسين عياد يرحل اليوم بمستشفى كاروبي في السادسة مساء، بسبب الغدر والحزن، عن عمر السّتين عامًا، وذلك بعد دقائق قليلة من تسلُّمِه

أعذار التَّرحيل من بيته، تاركًا زوجته وابنتيه وأحبابه وجيرانه في زنقة الطَّليان التي عاش فيها كل سنوات عمره، بين الفرح والترح، ليطبّق عليه قرار التَّرحيل حيًّا وميتًا. كنَّا في الصّغر نسعد بقطع الحلوى التي كنا نقتنيها من متجره، وكان لا يردنا إلى بيوتنا بخفي حنين، سواء أكنا نمتلك النقود أم لا.

أضفت مؤكدًا على كلام فيصل:

– في هذه المرحلة ترتفع هواجس النَّاس، من دون القدرة على التَّصدي لقرار البلدية الجائر أو إيجاد خلاص له، حتّى اللّحظة. تغيَّرت حياتهم فجأة، أو على الأقل، تغيَّرت حياة جلّ ساكنة لابلاص دارم، إذا لم يكن ثمة مبالغة في التّصورات، حيث لا يُعرف بعد ما سيؤول إليه الوضع أو ما الذي ينتظرنا خلال الفترات المقبلة، لكن الهمَّ والكدر طال أغلبنا، خاصة نحن ساكنة زنقة الطَّليان. أتمنى أن تدفعنا تلك المخاوف والهواجس إلى التشبُّث أكثر بالحياة من خلال المقاومة ورفض كل ما يدبَّر لنا بليل، ونقل الرُّعب إلى معسكرهم، لقضّ مضجع المير وكل من والاه بدلًا من الاستسلام والموت. المشكل الذي نعيشه معقَّد جدًا، واكتسح كامل خلايا أجسادنا وتفكيرنا وأثر على نفسياتنا. الملاحظ اليوم في ظلّ ما أصبح يسمّم الحياة في لابلاص دارم، ومع تحرشات رئيس البلدية، يدفعنا إلى التّفكير بجدية أكثر عن كيفية التّعامل مع هذا الوضع الجديد، والنّصائح التي يمكن أن نقدمها لساكنة المدينة العتيقة لتجنّب الوقوع في فخه، بدلًا من ندب حظنا التّعيس، حتى يصبحوا كلّهم متأهبين لما سيؤول إليه الوضع في قادم الأيّام.

لا شك أن تأثيرات قرارات التّرحيل ستكون كارثية في كل مناحي حياة النّاس. الأمر الذي سيجعلنا نعيد النّظر في الكثير من مسلماتنا، نهتم بكل صغيرة وكبيرة في أحيائنا، ستجعلنا أكثر احتياطا للنّظافة، سنقوِّم سلوكنا ونعدّل بوصلته لاتجاه الأعمال الاجتماعية. قد تغيّرنا وتكشف عن ذات داخلية جديدة تميل نحو التَّخلي عن نمط العزلة

لدى أغلبنا، وربما تصحّح بعض المفاهيم الخاطئة في علاقتنا كجيران. جاءت أزمة قرارات الطرد والتّـرحيل وقد ينتهي ذلك قريبا جدًا، بفضل تآزرنا وتعاوننا ومقاومتنا.

أتى النَّادل مرَّة أخرى يسأل إن كنا بحاجة إلى خدمة ما، سكت الجميع. حالما انصرف عادوا إلى الموضوع، تحدث آخر وهو يخفض صوته حتَّى أصبح أقرب للهمس:

– في زنقة الطّليان، الحيّ الذي أعيش فيه، فرضت البلدية الرحيل على الجميع وحصرت قبل يومين عدد البيوت وأحصت عدد القاطنين بكل بيت. أخبرونا لأسباب محددة، يتطلب توفر عقد زواج واصطحاب الدّفتر العائلي ووثيقة الزَّواج من كل بيت تقيم فيه أكثر من عائلة راغبة بالرَّحيل منه، في حال خولفت الإجراءات، هددونا بأن التَّرحيل الإجباري ستنفذه الشُّرطة وفي حالة مقاومة ذلك القرار، سيكون السّجنُ مصيرًا ينتظر كل مخالف، علاوة على غرامة مالية مفروضة على الشَّخص المخالف للتعليمات.

التّعليمات واضحة وصارمة، يتحدث رئيس البلدية عنها باستمرار، أو من خلال الموظفين الذين يرسلهم يدقون على الأبواب ويخاطبون الناس هنا بملامح وجه قاسية ولا يردون على بعض استفساراتهم، لأنّ قرار التّرحيل أو الطّرد في بدايته كان غامضاً وغير متوقعٍ. في هذه الأثناء، لا أحد يضمن بقاءه في بيته، الجميع أمام قرار الطّرد سواء.

قال أحدهم متململًا، بعد أن ارتشف رشفة من عصير الفراولة الممزوج بالحليب:

– للأسف نحن نعيش اليوم في مجتمع تدهورت فيه القيَّمُ التَّقليديَّة للتَّضامن. وتتمثَّل إحدى أكبر مشكلاتنا في استعادة أشكال التّضامن بين ساكنة المدينة العتيقة، بين الجار وجاره، بين الكبير والصغير، بين من يملكون قوت يومهم وبين من ضاقت بهم سبل العيش والمعوزين ومن بهم حاجة وخصاصة.

ثم قلت وأنا أحاول أن أبتسم ابتسامة لطيفة:

– ومع ما نقوم به، أرى أنَّ أشكال التَّضامن ستقوى أكثر بين الأولياء والأطفال، وبين الجيران على اختلاف أعمارهم وظروفهم، وستتمتَّن بصورة أشدَّ من ذي قبل. فضلًا عن هذا، ستتأثَّر عادات النَّاس بالنّسبة إلينا جميعًا وعلينا أن نُحسِنَ توظيفَ هذه الحالة الصحية من المقاومة ورفض ممارسات البلدية حتّى نُعيدَ النَّظر في أشياءَ كثيرة كنا قد فقدناها وبتنا دونها كالمدمنين والمخدرين، النَّزعة للانطواء على الذات، وتسمُّمنا النَّاجم عن أنانيتنا الضّيقة وهذا هو ما شجع المير وحمّة طلبي للاستقواء علينا حقّاً وحتّى نتخلّصَ من خوفنا أيضًا.

بعد أن أكملت رفعت نظري وهزّ الجميع رؤوسهم موافقين. مكثت مدة طويلة أنظر إليهم. في حقيقة الأمر، كانت عينا فيصل تسافران بعيدًا.

ثم أردف آخر وهو يتفحص وجهي وقد ظهرت عليه علامات الراحة:

– فبفضل ما يقوم به جلال بمعاونة خيرة ساكنة لابلاص دارم، أشعر أننا استعدنا ذلك الزّمن الجميل الذي مضى، استعدناه بشكل كامل، إذ لم يَعد مُقَطَّعا، فأضحى مَحسُوبًا بدقّة، منفلِتا من تلك الحلقة المفرَغة، العمل، البيت، ضرورات الحياة، متطلبات العيش، الكفاح طوال النهار خلف لقمة العيش... فإنّنا مع كل ذلك شعرنا بأننا نستعيد ذواتنا وأن نتدبّر احتياجاتنا الحقيقيّة وأقصد هنا: الحبَّ والصّداقة والتعاون والإحساس بالغير والشُّعور ببهجةِ الحياة من جديد.. فقد أعاننا ذلك الظّرف السيئ على أن نشرعَ في القضاء على ما يُسمّم نمط معيشتنا وفي فهم أنّ العيش بامتلاء، معناه أن نجعل روح الواحد منا جَذْلى ولكنّها تكَون دومًا في صُلب المجموع (نحن ساكنة المدينة العتيقة)، بكل تنوّعنا واختلافنا وتشابهاتنا وتناقضاتنا.

النّقاش يستمر طويلًا، إذ بمجرد أن ينضم إلينا بوجمعة غريسي برهة زمن، يتمّ تغيير الحديث، ويتحوّل الجميع إلى الحديث بحماس

ظاهر عن مباريات كرة القدم التي دارت قبل أيّام، هذا ينتقد أداء الفرق الأخرى وآخر ينتصر لفريقه المفضل، وهكذا. وحينما يغادر، يعود الجميع لمواصلة الحديث الذي اجتمعنا لأجله. إذّاك يتحدث آخر وقد اتسعت حدقتا عينيه، كما لو كان يحدق في جميع من يجلسون في المقهى:

– أخيرًا، وعلى سبيل المفارقة، تمكنّا من تحويل تلك الأزمة إلى شِفاء. كنتُ شديدَ التأثُّر وأنا أشاهد نسوة ساكنة لابلاص دارم يمددن لنا يد العون في أثناء قيامنا بدهن أزقة وأنهج وأحياء المدينة العتيقة بالجير وإعادة تزيين الجدران بالرسومات وأصص النباتات والورود، من شرفات بيوتهنّ، كنّ يرسلن لنا شتى أنواع الأطعمة والمأكولات التّقليدية كالطّواجن والشّخشوخة والبراج والمحاجب عن طيب خاطر، إنَّها أخوَّة افتقدناها وها نحن نستعيدها اليوم.

مرَّة أخرى، ونحن أكثر تضامنًا، لا يوجد منا أحد منغلق أو أناني، وإنَّما الكل مُنفَتح على مصيرنا المشترك فوق أرض لابلاص دارم التي تجمعنا... قبل ظهور خبر تهديم زنقة الطَّليان، كان النَّاس كلُّهم من جميع الأحياء يعانون المشكلات نفسها، تدهور المحيط المهدد بالزَّوال وانتشار القاذورات والنُّفايات في كلّ مكان، والحياة الفوضوية غير المنظَّمة التي تكرّس انعدام الإحساس بالآخر القريب. اليوم الجميع يشعر بأنَّ مصيرنا مشترك، بسبب هذا الخوف الذي استبدَّ بالعقول جراء تعميم قرار التهديم والترحيل على بقية أحياء المدينة العتيقة، فإنَّه بدلًا من التّفرق بدأنا نَعِي وحدة مصيرنا وهذا ما دفعنا إلى أن نتحصَّن بضرب الأنانية التي كانت ديدننا. وبطبيعة الحال، من اللَّازم وجود تضامن بين كل ساكنة لابلاص دارم، وهذا أمر ضروريٌّ بيننا. غير أنّنا إذا لم نفهم أنّه من الواجب أن نبلغ مستوى متقدّمًا في تضامننا، وإذا لم نغيّر من فكرنا الأنانيّ، فإنّ أزمة ستعصف بنا كلنا وستتفاقم حتمًا وسيكون المصير الذي ينتظرنا بائسًا إن كنّا لا نريد أن نعي خطورة الظّرف الذي نمر به.

2

تذكرت مينوش، المرّة الأخيرة التي شاهدته فيها، كان يتقلّب على ظهره وهو جذلان، بشعر جلده البني والرّمادي اللّون وعينين خضراوين كغابة استوائية.

اعتدت على وجوده، أحببته كصديق قريب. وشكرت القدر الذي وضعه في طريقي. كنت دومًا ممتنًا برفقته، كان نعم الصاحب.

آخر مرّة رأيته فيها، كانت في رواق الشقّة التي أقيم بها، حيث اقترب مني، وتمسّح بي، ثم انقلب على الأرضية كعادته.

كان مرحًا ونشيطًا، بعد أن التهم علبة السّردين التي فتحتها خصيصًا له. يبدو أنّه شبع.

كان منظره وهو يؤدي تلك الحركات ممتعًا للغاية وكأنّه يترجاني للبقاء بقربه.

جلست على طرف الكرسي ثم انحنيت له، مددت له يدي اليمنى، لعق أطراف أصابعي، مررت يدي اليسرى على شعر جلده، كأنّني أدعكه وأربت عليه بلين ولطف في الوقت ذاته.

بقي غيابه صباح أحد الأيام بالنسبة إليَّ كلغز محيّر، من يومها لم أسمع خبرًا عنه. أفتقده كثيرًا، كنت أبتهج لمجرَّد أن أشعر بوقع أقدامه على الدَّرجات أو في الغرفة، على الرَّغم من أن مينوش لا يحدث أي صوت في أثناء المشي. كان غيابه موحشًا جدًا، أصبح مع مرور الوقت أقلّ حدة.

لقد يئست من انتظار قدومه، أسابيع تلو الأخرى مرَّت ولا أثر له!

ربّما غادر من دون رجعة، غادر بمحض إرادته، لم يُكرهه أحدٌ. غادر في صمت، من دون جلبة أو ضجيج.

لا أدري لماذا أقدم على ذلك الفعل؟ كان سلوكًا غريبًا!

ابتعد كأنَّه أراد بذلك الهرب من شيء ما.

كنت أعامله بمودة ولطف، كفرد من العائلة تمامًا. كنت ألاعبه، أهتم بشؤون صحته ونظافته وطعامه. لم أهمله مطلقًا. منذ أن وجدته ذات يوم باردٍ وماطرٍ أسفل البناية وأنا أفتح باب المدخل وأهمّ بالخروج، وجدته رابضًا هناك، مبتلًا ومرتعشًا، كان مخلوقًا جميلًا، ذكرًا، فروته لماعة تشبه جلد النمر، وعيناه مضيئتان. لم يهرب أو يخف مني، أقبل نحوي وراح يحك جنب ظهره بإحدى قدميّ. لما قفلت عائدًا إلى داخل البناية لحق بي، حملته إلى الشّقة، فتحت الثّلاجة، وأخرجت منها علبة سردين، فتحتها له، وبدا ذلك اليوم جائعًا جدًا، أتى على كامل العلبة ولما فرغ منها لعقها بلسانه.

كنت دومًا أتساءل في قرارة نفسي: «هل مينوش جاحد إلى هذه الدرجة؟». كنت أفكر في الأمر وأنا غاضب جدًا، ووحيد وحزين وجد مخذول.

أدار ظهره لي واختار أن يبدأ حياة جديدة، في مكان جديد؟

قرّرت أن أتجاوز الأمر ومواصلة حياتي كأنَّ شيئًا لم يكن. رغم ذلك بقيت ذكراه عالقة، كلّما رأيت قطًا ينط أو يتقافز في الشارع إلا وتذكرت مينوش وشعرت بثقل رحيله. في مرات أشتاقه إلى درجة تخيَّل وقع أقدامه على أرضية البلاط أو سماع موائه خلف الباب. كنت أجري إلى الباب، أفتحه بشوق: لا أعثر إلا على مجرد عتمة ودرجات السُّلم الضيّق خالية من أي حركة، المكان موحش. آخذ نفسا عميقًا وأغلق الباب بقوة.

أحسّ بالأسى كلما أتذكره، كان اختفاؤه مؤلمًا جدًا، أشعر بدمعة حارقة على خدي، مصحوبة بارتعاشة خفيفة.

3

لم يكن بإمكاني العبور هكذا ببساطة على رصيف غير بعيد عن الشّوارع الضّيقة في حي سيانارا، شعرت ببرودة الهواء في ليلة طقسها لطيف والشَّارع ما زال مزدحمًا بالمارة حتَّى مع غياب الشمس عن الأفق، كان الجوُّ ما زال صحوًا وصافيًا، يتردد صدى الأصوات التي تنبعث من أزقة وأحياء لابلاص دارم.

كنت أنتظر قدوم فيصل بونخلة. كانت الأجواء هناك هي نفسها دائمًا، أربعة شبان يجلسون على الرَّصيف لا يفعلون شيئًا معينًا عدا القهقهة عن نكت بذيئة، وعندما تمرُّ بهم فتاة أو امرأة يتعقبونها بأعينهم ويكتفون بالتَّحديق. بعض المتاجر ما زالت مفتوحة.

وقفت محدقا في أطلال تلك البناية بطوابقها المتعددة التي تطلّ على حظيرة السّيارات، بناية ذات طراز أندلسي وعثماني هجرها قاطنوها لما آلت إليه حالتها من خراب، تهدم نصفها تقريبا واحتلتها أكوام من القمامة وردم الطّوب. كان يمكنني أن أشاهد ساكنة المدينة العتيقة وهم ينظرون للأعلى غارقين بمتابعة عرض موسيقي أو مسرحي من أعلى طابق من أطلال تلك البناية، وهم متحمسون ومسحورون بالعرض. لو تجد من يلتزم بتنظيفها ورفع تلك الأكوام عنها، كان يكفي تثبيت ثلاثة مصابيح كاشفة متحركة وجهاز صوت واثنين أو ثلاثة من الأشخاص، عازف، وممثل مسرح، ومغن، لإحداث أثر عميق في نفوس النّاس هنا وخلق لحظة نحلم بها كلّنا، بتحويل هذا المكان البائس والحزين إلى مصدر بهجة ومتعة لا تضاهى.

دومًا ما كنت في قرارة نفسي أتساءل عن كيفية تحوَّل أطلال البنايات المهجورة المنتشرة في المدينة العتيقة إلى قصور تمتلئ بالحياة، مساحات للفن والثّقافة، كيف يحدث تمكين الفنانين من استخدام تلك المساحات في لابلاص دارم للتعبير عن آرائهم وعرض مواهبهم وخلق فرص للنّاس هنا لحضور تلك العروض والاستمتاع بالأنشطة الثّقافية والفنية وجعلها في متناولهم جميعًا؟

ذهبنا راجلين إلى بار ماكسيمز في موقع لا يبعد عن بناية مسرح عنّابة. فعادة ما كنا نقطع نصف وسط المدينة مشيًا على الأقدام في الذهاب والإياب. اخترنا مقعدين في إحدى زوايا البار وطلبت من النّادل أن يجلب لي بعض قارورات البيرة. كان فيصل بونخلة لا يتناول الكحول لقناعات خاصة، فلم تظهر عليه علامات تشير إلى تبرمه أو امتعاضه من المكان. احتسيت بعض القارورات وواصلت الكلام حول عبثية ما يحدث للمدينة العتيقة على يد مجموعة من المسؤولين المحليين ذوي العقول العقيمة والكروش المنتفخة وعلى رأسهم رئيس البلدية سي ناجي مسعودان الذي يفتقر للكفاءة ويجعلني كلما صادفته أشعر برغبة كبيرة في التقيؤ. كان يجيد الكذب واللّعب على كلّ الحبال، كان نذلًا بأتــمِّ معنى الكلمة. تبًا له، ابن قحبة.

قال فيصل بونخلة وهو يجلس قبالتي مادًّا عنقه إليَّ، فيتجاوز رأسه نصف الطَّاولة، وفمه تقريبًا فوق كأسي، ورذاذ لعابه يتطاير من دون أن ينتبه له، وفي المقابل سحبت الكأس بعيدًا عن موضع فمه كي لا يغرقها بلعابه ولو كنت معه في المقهى لتركت فنجان قهوتي في مكانه كما هو، لا ألمسه ولا أقرّبه من شفتيَّ حتى وإن كنت قد ارتشفت منه من قبل رشفة أو رشفتين فقط. هكذا كان يفعل دومًا عندما يرغب في ألا يسمع حديثه أحد غيري: «هل حمّة طُلبي يمتلك مؤخرة؟ فشكله الدائري والمكور قد يعفيه من وجودها». يضحك ثم يضيف: «كلما أصادفه يمشي أو بالأحرى يقفز قفزات تشبه قفزات الخنزير، يبدو لي أنَّه لا يتوقف عن النمو! كائن

ضخم لا يفوقه في الحجم سوى الفيل.. الغريب أنَّه يرشح بالعرق حتى في برد الشتاء». يقهقه مرة أخرى ويردف والكلمات تخرج من فمه ممزوجة بالضَّحِكات ومع ذلك لا يتوقف عن الحديث: «بسبب جسده الأسطواني الشكل، بالكاد تظهر عيناه وأذناه على سطح وجهه الصغير. فكه مدعوم بكتلة كبيرة من اللحم المتدحرج للخلف كأنَّه عاشب من فصيلة البرنيقيات.. كيف يتكيف مع تحمل وزنه الهائل؟».

كنت أفكر فيما قاله فيصل وأتخيَّل الأمر بصوت مسموع، فقد وجدت نفسي مضطرًا إلى مجاراته: «لعله كله مؤخرة». وهو الآن يتغوَّط في زنقة الطّليان، غائطه لوث المكان ورائحته خنقت المدينة بأكملها، فهو من بين أكبر من عاثوا في عنّابة فسادا، هناك شخصيات نافذة في الحكم تحميه وترعاه وتتقاسم معه غنائم مشاريعه التي أساسها النّهب ثمّ النّهب، والنّهب بلا توقف. كما تحمي أيضا كل أصحاب النتوءات والبطون المنتفخة والمؤخرات التي تشبه الكروش. هؤلاء مجهزون بحكم نفوذهم لإلحاق الضرر بأي شخص يتعرض لهم. بإمكانهم أن يدوسوا على كل من تسول له نفسه مضايقتهم ومع ذلك فأنا لا أخشى أحدا منهم».

يقاطعني فيصل: «هل تعرف أنّ حمّة طلبي يقضي وقتا كبيرا في الاستلقاء، الكراسي لا تسع عجيزته العملاقة. يحتاج توفير صالون في كل مجلس يدعى له». ويدخل مجددًا في نوبة من القهقهات المتتالية، يلتفت إليه بعض رواد الحانة ومع ذلك يضيف بقدرته الكبيرة على السُّخرية من كل شيء: «لا تنسَ سي ناجي مسعودان، القادم من عين قشرة. يشعرني بالقرف، خصوصًا عندما يرتدي بذلة النصف كم مع ربطة العنق التي تكشف عن مرفقيه المحدودبين، كما تكشف تلك البذلة، أيضًا، أنه يشترك في ارتدائها مثله مثل كل الانتهازيين والمتحزبين والسّياسيين والطَّماعين والسَّراقين والذين هم على شاكلتهم في استعدادهم لبيع أعراضهم وأوطانهم من أجل بضعة دنانير أو مصالحَ ضيِّقة أو منافعَ عابرة أو مطامعَ خاصة أو

مطامحَ مقيتة، لا شرف ولا ضمائر لهؤلاء ولا وفاء لهم تجاه بلدهم. يدينون بالوفاء والولاء لأسيادهم فقط. الكلاب أكثر عفة ووفاء منهم. تلك البذلة بكمّين قصيرين كعلامة مسجلة تميّزهم دون غيرهم، كشارة أو كلطخة على تلوث أيديهم السّوداء ووجوههم الكالحة وبطونهم المليئة بالتّبن وبالحرام. غالبًا ما يرتديها في فصل الصّيف، وفي بقية الفصول الأخرى لما يكون الطقس معتدلًا».

انفجرت في ضحكة مجلجلة، فقد أذهلتني العبارات التي كانت جاهزة ومواتية على لسانه، بديهته حاضرة دومًا للنيل من هؤلاء الأوغاد. ولأنَّني استمتعت بالأمر، رحت أحكي له عن شخص آخر لم ينتبه إليه: «ولا تنسَ أيضًا ذلك المرتزق باديس بَقَة أو قْرَادَة، كما يصفه الزملاء، وهو الذي غذى لمدة طويلة نكاتهم وسخريتهم. فقد كتب في الأسابيع القلية الماضية سلسلة مقالات في صحيفة الغروب، يشيد فيها بمشروع المدينة العتيقة كواجهة سياحية، ويروّج لمنطق تهديم زنقة الطَّليان. القاصي والدَّاني على علم بأنَّه يقبض مقدمًا ثمن كلّ كلمة يكتبها؛ صحفي مأجور باع ذمته لحمّة طُلبي». اقترب فيصل مني وكأنَّه يرغب في ألا يسمعه أحد غيري، ثم همس لي: «إنَّهما من دوَّار واحد هو وحمّة طُلبي، دوّار تجارة الزطلة والسلاح، الجبورة الهزّية. كأنّهما جاءا إلى عنّابة للانتقام.. الله غالب عنّابة سورها واطي. شحال رفدت من كافية».

ولكي أغيّر مجرى الحديث، رحت أروي له ما شعرت به قبل عشرين دقيقة تقريبًا أو أكثر بقليل، حين كنت أقف قبالة تلك البناية المهجورة:

– هناك بنايات مهجورة ومساحات أخرى متغاضٍ عنها تقع بين البنايات أو خلفها، لدينا العديد منها هنا في لابلاص دارم، نعتقد أنها عديمة الفائدة بسبب تخلي النّاس عنها أو لاعتقادهم أنهم ليسوا بحاجة إليها، يمكن إحياؤها مرة أخرى باستخدام الفن. لكن الأمر يتطلب منّا جمعَ مقدارٍ من الشغف والتفاني والصدق قبل ذلك،

الأمر لا يحتاج إلا إلى أفكار بسيطة تسلّط الضَّوء على تلك المساحات المنسية وتلهم الناس بالقصص والحكايات عن تاريخها.

بدأ البار يغصُّ بالرواد ومع ذلك واصلنا الحديث غير آبهين لهؤلاء الأشخاص وهم يجلسون قريبا من طاولتنا. فقال فيصل:

– بإمكان أيّ منا أن يجمع القصص من أفواه كبار السن والعجائز الذين يعيشون في المدينة العتيقة وتحويل تلك القصص إلى صور لتزيين الجدران أو قصص مصورة أو فيديوهات أو عروض مرئية، يؤديها ممثلون، يشاهدها ويتفاعل معها ساكنة لابلاص دارم. وتنظيم جولات يقودها مرشدون لهم دراية بالمكان من أجل معرفة تاريخ وتراث لابلاص دارم واستضافة بعض المهرجانات واستئجار بعض المساحات للأنشطة الفنية والثّقافية.

بينما كنت أنصت إليه، وضعت لفافة السيجارة في فمي، الدخان يتموَّج عموديًا للأعلى ثم يتلاشى في عقد تشبه السّحب وحين فرغ من الكلام أطلقت نفسًا آخر من فتحتي أنفي، نفختُه قليلا إلى الأعلى، ثم قلت:

– يمكننا تعديل تلك الأمكنة لتتناسب مع ذلك وعرض الأفلام وتحويل بعض منها إلى متحف للصّور القديمة لمعالم وأعلام لابلاص دارم.. ولا يمكن التّغاضي عن أهمية محاولة إشراك ساكنة لابلاص دارم في هذه المشاريع.

قال فيصل:

– تمامًا، هذا ما كنت أشير إليه بالضَّبط في حديثي.

قربت السّيجارة من فمي مرة أخرى ثم أضفت:

– أتمنى أن أرى تلك الأمكنة المظلمة والمليئة بالقمامة والتي يستغلُّ بعضها تجار المخدرات، تتحول إلى فضاءات لعروض الأفلام ومسرح الشَّارع وحفلات الموسيقى ومعرض للحرف اليدوية. سيرحب ساكنة المدينة العتيقة بالمشروع وسيحتضنونه وسيحظى باهتمام بالغ من قبلهم.

توقفت عن الكلام، مركزًا نظري في القناني الفارغة على الطاولة وتنهدت كأنّني أحرر صدري مما كان يثقله. قمت من مكاني مثقلًا بالأسى حيال تلك الوجوه التي شوهت كل شيء جميل بالمدينة.

غادرنا، فيصل وأنا معًا، وتمكّن من حملي على التمشيّ الذي لم يصل إلى نهاية. كان الخواء يحتل كل المساحات والصّمت المنبعث على امتداد الشّوارع والمحالات المغلقة والبنايات الكولونيالية يحيل على صمت المقابر، وهدأة الفراغ مع ظلمة الليل تنبئ بالقرى المهجورة والمدن المدفونة. يكاد كل شيء يتداعى من حولي، فأزداد التوغل في عالم آخر. عندها اقترحت عليه أن نعود أدراجنا إلى لابلاص دارم، فغدًا ينتظرنا يوم جديد مع الشلّة من أجل مناقشاتنا. لم يبد أيّة معارضة. كانت أحاديثنا اللّيلية عند العودة من الجولة إلى الشّقة ذات سحر لا نظير له وكأنّنا لا نلتقي في النهار أبدًا! كأننا لم نكن نقضي شطرًا كبيرًا من النهار ونحن نحلم بإعادة لابلاص دارم إلى سابق عهدها وإحيائها من خلال الاستفادة من المباني العتيقة والمهدمة. بينما كنت أفكّر في ذلك، قفز إلى ذهني فيصل وكيف شكّل معي نواة الشلة، حيث كنّا نلتقي باستمرار في المقاهي من أجل مناقشات تشمل كل ما يهمُّ ساكنة المدينة العتيقة ومن خلالهم وسّع فيصل المجموعة إلى عدد أكبر من أصدقائه ومن يثق بهم، لقد شكّل أصحابه دعمًا كبيرًا لنادينا المغلق وأصبحت له لغته الخاصة وأمتلك طقوسًا بعينها ونبرة لاذعة ومتشككة في ممارسات وسلوكيات رئيس البلدية سي ناجي مسعودان وأعوانه. في تلك الأوقات التي كنت أقضيها برفقته، كان يمتصُّ مخاوفي وقلقي، وتنتشلني سخريته اللاذعة والنّكت التي كان يرويها لي من بين هواجسي وما كان يعتريني من فزع على مصير ساكنة زنقة الطّليان.

4

عندما رجعت إلى الشّقة، أحسست بالتّعب. رميت نفسي كيفما اتفق على أرضية الغرفة، انحنيت بظهري على الجدار وأثنيت قدمي؛ اليمنى مرفوعة للأعلى واليسرى أبقيتها على الأرض، ثم وضعت كف يدي الأيمن على ركبة رجلي اليمنى وأمسكت خصري من الشّمال بيدي اليسرى.

كنت أجلس شبه عارٍ وزجاجة النَّبيذ نصف الفارغة التي كنت أحتفظ بها غير بعيدة عنّي. بقية طعام وخبز ملقى أمام ناظري على صينية في الأرض، وضعت من دون مائدة. تحسست بأطراف أصابع يدي ملامح وجهي وقسماته، شعرت أنّ لي ألف وجه ووجه، أم أنّ لي وجهًا واحدًا بألف قناع!؟ أظن أنَّني غفوت لحظتها وأنّ ذلك كان حلمًا أو ما يشبه الحلم. في الحقيقة لست أدري، اختلطت عليّ الأمور رأسًا على عقب ولم أعد أستطيع أن أُفرِّق بين اليقظة والنوم.

ما أتذكره بعدها، أنّني صعدت إلى سريري واستغرقت في النوم. ثم رأيت دلال سعيدي في الحلم. ربما ظهرت لي حينما تذكرتها اليوم. كان الوقت ظهرًا حين عثر زوج دلال عليها في زنقة الطّـليان، كانت علامات المفاجأة والرّعب بادية على ملامح وجهها. اعترتني هزَّة مفاجئة في الحلم، ماذا لو خنقها، ليرديها قتيلة في شقتها الباردة. انتابني قلق رهيب. لم أكن أرغب في التَّفكير في مصير جثة دلال، بدأت ألهث في الحلم. كنت أجد صعوبة في التّنفس. قلبي يكاد ينفجر من صدري من شدَّة هلعي. نهضت فزعًا والعرق

يتصبب مني: هل عليَّ أن أذهب إلى شقَّتها وأدق على بابها في هذا الوقت المتأخر من الليل كي أتأكد من أنها لا تزال على قيد الحياة؟ فكرت لماذا لا أتصل بها على رقم موبايلها كي أطمئن عليها؟ رفعت الموبايل، بحثت عن اسمها في القائمة، ضغطت على خانة الاتصال. رنَّ جرس الموبايل: الرنة الأولى، الثّانية، الثّالثة... لا أحد يجيب. رنّ ست مرات أو أكثر، وقبل أن يتوقف وصلني صوتها متثائبًا متأففًا. أقفلت الخط مباشرة، وخاطبت نفسي: «كم أنا غبي! لماذا اتصل بها في هذا الوقت المتأخر من الليل بسبب حلم؟ هل أنا مجنون؟». ما رأيته مجرّد حلم مأتاه تذكري ما سبق وروته لي دلال عن ظهور زوجها في منامها، فأنطبع ذلك الأمر في ذهني. على العموم بتّ أشفق على دلال مذ حدثتني ذاك اليوم عن مأساتها مع زوجها وكيف عاشت معه كلّ ألوان الجحيم. هي امرأة وحيدة بيننا، يكفيها ما عانته. لا أحد بإمكانه تصوّر المشاعر التي تعصف داخلها كإعصار. الحياة بدت لها ككوة مظلمة، الجميع يحظى فيها ببعض السّعادة والامتنان، إلّا هي وحيدة، غارقة في عالمها المظلم، لا عائلة تشعرها بالدفء ولا أبناء تحظى بامتنانهم وبرِّهم. وكأنّ ظروف الحياة وتصاريف الدّهر فرضت عليها أن تعيش داخل قنينة زجاجية، ثم أحكمت إغلاقها عليها.

5

منذ ليلة ما قبل البارحة، شعرت بأمر غريب، فلم ألبث وأن ضاعفت سرعتي وعبرت بقية الطّريق إلى البناية حيث أقيم عدوًا. فمنذ أن انتقلت إلى هذا الحيّ لم يحدث معي وأن شعرت بهذا الشّعور المريب. كنت أجوب الطُّرقات غير المستوية والأرصفة المتآكلة وأمر بجانب الحيطان المتصدعة والأبنية حالكة اللَّون، المنذرة بالانهيار أو المهجورة. أحيانًا كنت أعود وحدي بعد منتصف اللَّيل ولم يعترضني أي مكروه!

شعرت بأنّ هناك من كان يلاحقني، كنت أشعر به يتبعني طيلة الطَّريق. أما ليلة البارحة فرأيت خيال شخص ما، كان خلفي وكنت أشعر به يدخّن. لم أهرب، بينما كنت أشعر به يلاحقني، كما أنَّه لم يتعرض لي، لكنَّه أخافني بحق الجحيم، شعرت بأنّ وجهي قد شحب وأبيضّ لونه من شدّة الخوف.

واليوم بينما كنت على أهبة الدخول إلى البناية، لمحته واقفًا يحدّق بي. صعدت الدرجات عدوًا، وضعت المفتاح كيفما اتفق في ثقب الباب. هرولت للنافذة، لمحته مجددًا من وراء السّتار ما يزال جاثمًا في مكانه أمام البناية، ككائن ضخم، بجسد هائل، كنت أكنس بنظراتي القلقة الشَّارع من أقصاه إلى أقصاه.

بقيت واقفًا خلف السّتار كقزم عاجز، وسجين مليء بالتَّشوُّش والرُّعب والذُّعر، أشاهده حتى يرحل، لكنه لم يغادر بعد، لم يتحرك من مكانه، لا يزال واقفًا مقابل مدخل البناية. كنت خائفًا من النُّزول إليه ومعرفة ما الذي يريده مني.

6

فتحت عينيَّ في حجرة في مركز الأمن الحضري الثاني، كنت خلف قضبان حديدية. كان باب الغرفة مواربًا ورأيت أنها كانت تطل على بهو مشترك ضيّق وطويل. تصدر عنه روائح كريهة يصعب كشف مصدرها، ممزوجة برائحة دخان السجائر.

بعد لحظات دخل عون أمن برتبة عريف إلى الغرفة وتحقق من أنَّ كلَّ شيء على أحسن ما يرام وأنَّ السَّجين يقبع خلف القضبان. طرح عليَّ سؤالًا بنبرة جادة وصارمة. لم أجبه بشيء. جلس على الكرسي وراح ينظر إليَّ تارة ويلتفت إلى شماله تارة أخرى وأعاد السُّؤال مرة أخرى بتململ وقلق. نظرت إليه باشمئزاز من دون أن أنطق بكلمة واحدة بينما سدد إليَّ نظرة غاضبة ثمَّ راح ينادي رئيسه.

كان الضَّابط الأعلى رتبة يرتدي بذلة زرقاء، نظيفة ومكوية من الأمام والخلف بشكل مثالي، لا تظهر عليها أدنى انثناءات أو انكماشات. تفحصني بدقة ثم حاول أن يفتح معي حديثًا. دون جدوى. تنحنح وأضاف: «حاول أن تصغي مرَّةً واحدة لصوت العقل، مرة واحدة فقط». ظللت أشدُّ على فكيَّ وأتابع بنظرات متعبة رواح البعض ومجيئهم الآخر من دون أن أنبس ببنت شفة.

وعندما حلَّ وقت الغداء، لم أبالِ بالطَّعام والشَّراب المقدم إليَّ ولم أتفوَّه بأي كلمة في الأيام التي تلت توقيفي واحتجازي في هذا المكان البائس على ذمَّة التحقيق، لكن الضَّابط المسؤول هنا قرَّر أن أكمل فترة التحقيق في السونترال.

في الليلة الأولى التي أُحضِرت فيها إلى سجن بوزعرورة، بعد أن أودعوني داخل الزّنزانة، انحنيت بعض الشّيء وتنفست بعمق واعترتني علامات الذهول والقشعريرة، لأنّ السّجن كان مكتظًا، حيث يسير السّجناء كتفاً إلى كتف، والإجراءات الأمنية مشدّدة جدًا والبرد الرّطب يخترق العظام...

ها أنذا في أسوأ وضع يمكن أن يكون فيه إنسان، لأوّل مرة أدخل فيها السّجن.. لم أعرف ما أفعله حيال وضعي الجديد؛ بما أنّني مجرّد سجين مبتدئ كنت هائمًا في الفراغ، لا أستطيع التّفكير، فقدت القدرة على القيام بذلك تمامًا، شعرت بأنَّ الحلول انعدمت. كنت في هوّة مظلمة، لم أستطع التَّحرك. صمت رهيب وضغط ساحق وظلام حالك. كنت أشعر بأنّني عارٍ تمامًا كما ولدتني أمي وأعمى لا أتبيّن الخيط الأبيض من الأسود وعاجز كأنَّ شللًا قد أصابني ومبلَّل بالعرق، تتحرش بي كلاب متعطشة لالتهام البشر، في جوف فراغ أسود هائل.

أجدُني أحياناً أشعر بالرّغبة في الموت، وبهذه الطريقة على الأقل، ستنتهي الحالة المأساوية التي أنا عليها، حالة منهكة، استنزفتني إلى حد النّخاع. ولعلّ أكثر علامة واضحة على قلقي وتوتري من حالة عدم اليقين، قد ترجمت في علاقتي بالنّوم. منذ قرابة أسبوع كنت أتطلع إلى حلول اللَّيل، حيث في نهاية المطاف يمكنني أن أنام وأنسى كل المخاوف التي تجتاحني صباح مساء في حياتي اليومية. لكن في حقيقة الأمر، ما حدث هو العكس تمامًا، أصبحت أخشى أن أنام، لأنّ الكوابيس تطاردني حتّى في أحلامي وتوقظني وأنا في حالة من الذعر. في حقيقة الأمر كنت في مكان برزخي بين الكوابيس والحقيقة. لا شيء يضفي عليّ بعض الحياة غير ما تبقى في ذاكرتي من وجوه النساء الشّقيّات التّعيسات وهن يروين عطشي للحكايات.. في طفولتي كنت منبهرًا بما يقوم به ساحر ألعاب الخفة، أرمي منديلًا فوق تلك الحروف والكلمات التي تخرج من أفواه النّساء، حالما أرفعه أجدها قد استحالت إلى صور ومشاهد، ألوذ خلف ما شيدته

بخيالي وكأني أتبضع من ذاكرتهم ووجوههم كي أسافر عبر التّاريخ وأشقّ الأمكنة بعفوية طفل لا يؤمن بكروية الأرض. ولو كانت كذلك كما فكرت ذات يوم، لسقطت وتهاويت ولما عدت من ذلك العالم السّاحر. أودع ألعابي التّافهة في طرف الحجرة وأعود دائماً من حيث بدأت لأنّي أكره الرّحيل من دون أن ألوي خلفي. ربَّما كان ذلك مجرَّد خاطرة في داخل رأسي ما زلت قادرًا على استعادتها لكن ذاكرتي تزداد شحوبا وقد نسيت الكثير من الأمور، وكلَّما تلاشت ذكريات بداخلي، ازددت يقينًا بأنَّني أقترب من السقوط في العتمة.

في اليوم الثَّاني، بدأت أتعرض إلى السَّب والشَّتم داخل السّجن بينما كنت أمشي وحيدًا في الباحة الصَّغيرة على مقربة من زنزانتي. أمَّا في اليوم الرَّابع فقد تعرضت للضرب. تجاهل حراس السّجن طلبي بينما كنت أتوسَّل إليهم كي يساعدوني. وفي اليوم السَّادس تــمَّ نقلي إلى سجن العلاليف. في اليوم التاسع تــمَّ منع المحامي من زيارتي بحكم أن الرخصة التي مُنحت له صالحة لسجن بوزعرورة فقط.

ولما برمجت جلسة المحاكمة أعادوني إلى سجن بوزعرورة، وفي اليوم التَّالي تمكن المحامي من رؤيتي. أعتقد أنَّهم استغربوا لحالتي عندما طلبت كتاب «خرافة الرَّجل القوي» من المكتبة.

في اليوم الموالي، وبعد خمس دقائق فقط من الانتظار واقفًا في رواق مجلس قضاء عنَّابة، أدخلوني إلى قاعة المحاكمة. وقفت أمام القاضي، في جلسة المحاكمة الثانية، بعدما استأنف محاميَّ حكم القاضي بحبسي عامًا سجنًا نافذًا وغرامة مالية بـمئة ألف دينار.

قال القاضي في الحكم الصادر عنه إنني قمت بأفعال تكوين جماعة أشرار والتَّحريض على التّجمهر والعنف وإهانة هيئة نظامية وتعطيل السّلطات عن تأدية مهامها وتهم أخرى لكثرتها وغرابتها ما عُدتّ أتذكرها..

بما أنّ المحامي كان يصيخ السمع لما أدلى به القاضي، أبلغ بدوره القاضي: بما كنت أتعرض له من معاملة سيِّئة في السّـجن،

ثم أضاف بأنّ وضعي الصّحي لا يسمح بالبقاء في السجن وإن لم أنقل إلى المستشفى سأبلغ عتبة الموت. أمّا أنا فقد خاطبت القاضي قائلًا: «أنا صحفي محترف ومن واجبي انتقاد المسؤولين والدفاع عن الناس المظلومين والمقهورين» ثم أضفت مستطردًا: «لماذا أندم؟ أنا شخص يحبُّ وطنه، أنا صحفي ومن حقي انتقاد رئيس البلدية سي ناجي مسعودان وكشف فساده مع رجل الأعمال حمّة طلبي، وممارسة الرقابة المواطنية عليه».

جرت المحاكمة على مدار ساعتين كاملتين. ولم يقتنع القاضي بحجج المحامي ولم يأبه بكل دعوات الرّجاء، فضاعت كلّ الجهود في سبيل ذلك سدًى.

عدت مجدداً إلى زنزانتي، واصلت الإضراب عن الطعام، يومًا بيوم كنت أفقد بعضًا من حواسي، فقدت القدرة على الكلام ثم القدرة على المشي وبعدهما لم أعد أستطيع الوقوف بشكل مطلق. أحضروا لي كرسيًا متحركًا لاستخدامه. لكنّ طبيب السجن حرص على الظهور واثقًا، مؤكدًا بأن حالتي الصّحية لا تستدعي القلق وأنّ عليّ إتّباع العلاج الذي وصفه من أجل أن أتعافى بأسرع وقت.

حراس السّجن، تجاهلوا قبل أيام طلبي للمساعدة، قائلين: «إذا لم تستطع التّنفس، كيف يمكنك التّحدث؟»، ثم أردفوا: «لقد سئمنا من التّعامل معك»، وذلك بعد مناداتي لهم مراراً وتكراراً للحصول على المساعدة، لـــمَّـا اشتكيت لهم من أنني كنت أعاني من نوبات تشنجية وتعرُّق لا يمكن السيطرة عليه وألم حادٍ في الجسم. قالوا كذلك، أنه كان عليك «التوقف عن الادعاء بأنّك مريض»، وأنه لا يوجد ما يمكنهم القيام به.

أُرسِلت لاحقًا إلى طبيب نفسي كي يقوم بـثنيي عن الإضراب ثم خضعت في السجن لمراقبة طبية ونفسية يومية تركزت على متابعة ضغط الدم ونسبة السكر ثم تدهورت حالتي الصحية وتعقدت بشكل

أفزع المحامي، فقد أصبحت غير قادر حتى على شرب الماء. إلَّا أنَّني مع كل ذلك أصررت على مواصلة الإضراب عن الطَّعام.

تنَقَّل قاضي تطبيق الأحكام لإقناعي بالعدول عن إضراب الطَّعام. وبعد أيام واجهت ارتفاعًا في نسبة السُّكر وأُعطيتُ أدوية ليتحسن وضعي الصحي. ثمَّ تـــمَّ نقلي إلى مستشفى كاروبي أين أُجريت لي مجموعة من التَّحاليل وتـــمَّ تمريري على فحص بالسكانير.

في اليوم الموالي تمَّ تحويلي إلى مستشفى النوفال وبعد الفحوصات التي أجريت لي، كما أخبرني الطَّبيب لاحقًا، حالـما استفقت واسترجعت وعيي، تبيَّن أنَّني أُصبت بجلطة دماغية وأُجريت لي عملية جراحية ووضع لي بعدها جهاز التنفس الاصطناعي، لكنَّني أصبحت أتغذى بصفة طبيعية، كما كان يؤكد لي الفريق الطّبي.

غير أنَّه بعد أسبوع من إقامتي في ذلك المستشفى، اكتشف الفريق الطبي أنني أعاني التهابات على مستوى الرئتين. وفي صبيحة اليوم الموالي لذلك تدهور وضعي الصّحي بشكل كبير.

رشيد العفريت

1

قبل وفاة زوجتي صونيا كتو بوقت قصير، قالت لي وهي مستلقية على السَّرير، بصوتها الدَّافئ وشفتيها الرَّقيقتين والشَّاحبتين: «لن أذهب إلى العدم، ثمة حياة أخرى بعد الموت، سأنتظرك هناك. عدني ألا تدعَ نفسك نهبًا للحزن..». أخبرتها وأنا مطرق الرَّأس، أنَّني سأمتثل لوصيّتها. ما إن أنهيت الجملة حتَّى اغرورقت عيناي بالدُّموع، كنت قاب قوسين أو أدنى من أن أطفق بالبكاء كطفل صغير يتمرغ على الأرض من فرط النَّحيب.

لكن مع ذلك تمالكت نفسي، مكرهًا لا بطلا. حين رفعت بصري لرؤيتها، لمحت على وجهها تعبيرًا بالرّضا وغمرتني بنظرةٍ متعاطفة رقيقة، كان الحنان يطفح من عينيها. لن أنساها ما حييت. صوتها العطوف يمزّق فؤادي إلى اليوم وينبش جراحا لم تلتئم في داخلي. ظلّ ذلك الصمت المتبادل مخيّمًا لبضع دقائق، إلى أن انتقلت إلى بارئها.

كنت متسمّرًا في مكاني، أذرف الدّمع وأرتعد، وفمي يرتجف وقد غطت الدّموع وجهي. وبحركة بطيئة، نهضت من الكرسي ثم اقتربت من السرير، جثوت على ركبتيّ، وبشيء من التّأثر والألم والعذاب الذي تراكم بداخلي، قبّلت جبينها وأنا أجتهد في رسم ابتسامة على شفتيّ، امتثالا لوصيتها.

كانت كأنّها نائمة. مددت يدي اليسرى، ممسكًا بيدها، وظللت على هذه الحال دون حراك وأنا محدق في عينيها المغمضتين، وشيئًا

فشيئًا اغرورقت عيناي بالدّموع مرة أخرى. مسحت عيني من الدموع، حاولت التّماسك لأنّني وعدتها.

جميعنا تمرّ به أمور غريبة؛ كأن يخطر على بالك شخص ما وفي تلك اللّحظة بالذات يتصل بك. فبعد ثلاثة أشهر من ذلك، لـمّا اضطرتني مطاردة رجال الشّرطة إلى مغادرة عين الصفراء، عشت متخفّيا عن الأنظار في لابلاص دارم بعنّابة. أوّل مرة صادفتها في أزقة المدينة الضيقة، شعرت وكأنّها صورة طبق الأصل من صونيا زوجتي وحبيبتي أيّام شبابي.

بينما حاولت أن تتخذ طريقاً مغايراً للذّهاب إلى العمل، تبعتها. طبعًا هالتها حالتي ومظهري الذي كنت أتوارى من خلفه، في حقيقة الأمر كنت بتلك الأسمال البالية أشبه بمسخ خرج من كهف مظلم، لكن للضرورة أحكام.

بعد ذلك كنت أرى أن تلك الحادثة التي وقعت على طريقي المعتاد ذلك اليوم، لا يمكن أن تكون قد حدثت بالصدفة، كما كنت أحدث نفسي، لابدّ من وجود تفسير أكثر عمقاً، كقوة خارقة قد أحدثت ذلك.

كلّما كنت أصادف دلال، أرى أيضًا صلات غير مرئية لها معنى. وأتذكر صونيا رحمها الله. كنت أفسّر الأمر على أنّه تحيّة منها في برزخها وهي بين السّماء والأرض وقد حبذت تصديق مثل هذا الشُّعور وبدأت أتنبأ بوقوع أمر ما. بسبب ما حدث معي.. أمر مختلف عن المعتاد. شعرت عندئذ بأن أمراً على وشك الحدوث له علاقة بزوجتي صونيا، مجرَّد حدس ثاقب. اعتقدت أنّ صونيا تظهر لي على هيئة دلال مرة بعد أخرى، فهذا ما زاد في مدى توقي إلى التَّواصل مع دلال. منحني وجودها الرّاحة، خاصة إذا أضفيت عليها معنى روحي؛ هذا ما يؤكده ظهورها في ذلك الوقت بالذات، والجميل أن المعجزات لا تحدث كل يوم.

أعلم أنَّها شيء غير مدركٍ، مستحيل. ولكن أجدني حيال كل ذلك ازداد قربا منها، ما يغريني فيها هو تمنُّعها، استحالتها. سيأتي ذلك

اليوم حيث أبوح لها بكل مكنوناتي وجوارحي ومشاعري، سأطلق العنان لكلماتي كي تنفجر من داخلي وتتدفق كنهر عذب لا يأبى أن يتوقف عن الجريان. حينها سأتحرّر من ثقل ما حبسته طيلة وقت طويل في جوفي.. فبها ينكشف لي الغيب وتنجلي كل المعاني الملغزة ومعها أقبض على سر الوجود ومباهجه.

مع ذلك أجد في الصبر على الاحتراق بجمر بعدها، دفئًا لليالي الطويلة وأنسًا لوَحدتي. مذ صادفتها بتُّ أطوف في الظَّلام الذي يغطي بنايات لابلاص دارم، كنت أطوف والناس نيام كالمعتوه، كنت أهيم بها عشقًا، غير مبالٍ بمكابرتها وتعاليها وتمنُّعها. أنا الدَّرويش في محرابها، عاشق مبتهل، كأنَّني أراها جاثمة أمامي، وإن لم أكن أراها فأنا أشعر بقربها وأنفاسها تطوف معي في المكان.

آه يا ميرزا غلام أحمد، لقد تمَّ إخلاء سبيلي وترحيلي إلى مدينتي عين الصفراء، المدينة التي منحتني خبزاً جافاً والكثير من الشَّقاء والصَّخب! ها أنا الآن بعيد عنها، كما كانت إيزابيل إبرهارت هنا بعيدة عن قبر أمها المدفونة بعنَّابة. الظلام الحالك البارد ابتلعني. وهكذا تكبر الهوة وتضيق رئتيَّ برائحة الهواء الرطب العفن. فأنا مجرد خطأ تافه أو فادح: لا يهم، لا أحد سيسأل عنه بعد إغلاق الدكاكين واجهاتها، وتحوُّل الليل إلى حيوان عظيم يلتهم كل من يعبر الشَّارع. ها أيها المصلح المجدّد والإمام المهدي والمسيح الموعود وموحّد الأديان ورابع الأربعة، بعد كريشنا وعيسى ومحمّد، أطلب عونك ودعمك وسندك، كي تلاقيني الأقدار بها من جديد. فأنا لم أخش ولم أخف حينما كنت خلف القضبان، فلم أنكر إيماني بك وجمعي للتبرعات لبناء مسجد لطائفتنا ولإنشاء مدرسة، بغرض ترسيخ مبادئ الطّائفة لدى الأطفال ولإطلاق قناة تلفزيونية تبشر بأفكار طائفتنا. عقيدتي لم تتزحزح قيد أنملة رغم التّحريض والتّضييق والقيود والإكراهات المفروضة عليّ. ها قد أبعدوني عنها غصبًا وكرهًا، كلي أمل بعفوك وسندك ودعمك يا سيدي ميرزا غلام أحمد.

فأنا مدرك أنّها حالما تعرف هوّيتي الحقيقة، لن تنفر مني مجددًا، ستبتهج بمنظري وستعتريها فرحة لا تضاهى وهي تتفرس في ملامحي وشكلي غير مصدقة ما ترى. ستضحك من الصّورة التي كنت أختفي خلفها وذلك المظهر البائس الذي كنت أتوارى من خلاله عن ملاحقات رجال الأمن. كُلّي أمل بدعمك يا سيدي ميرزا غلام أحمد في أن تجمعني بها من جديد. وعهدٌ على رقبتي لن أتنازل عنه أبدًا: سأبقى وفيًّا لمبادئ طائفتنا ما حييت ولن أخذلكَ أبدًا وسأنذر نفسي خادمًا أمينًا لكَ طيلة ما بقي لي من عمر أحياه برفقتها، لا شيء يفرقنا غير الموت.

عندما أتذكرها في عزلتي الاضطرارية، قلبي يترنَّح ثملًا في محيط عظيم من الشَّوق والوحشة إليها، كقارب صغير أخشى عليه الغرق في بحر ذكراها. الأيَّام تتتالى غير عابئة بما جرحني. البعد والتَّنائي حالا دون تدانينا. الغربة سقوط مبكر في اليأس. أجدني اليوم مجرَّد خطأ تافه ارتكبه جسدان في جنح ظلام المدينة، سؤال آخر يقض مضجعي ويزيد من أرقي. الوحشة سوط يجلدني ويدميني، ولكنها قبل ذلك جرح موغل في أعماقي، يُدمي روحي ويجعلها تنزف دموعًا قانية الحُمرة قبل كل شيء. لا ألبث أن أتذكرها، حينذاك أجد قلبي، من دون سابق إنذار يبتسم ويبتهج. أسقط أحيانًا في شِراك اليأس، من انعدام الحلول. أحيانا أمنح نفسي مساحة أمل، لما أرى النجوم، وألتمس من خلال نورها دفء قلبها. لا شيء يضاهي نظراتها، ابتسامتها، نبرة صوتها، كلماتها، أنفاسها. ثـــمَّة شيء تسرَّب إلى قلبي لأنَّني أراها بكلّ بهائها وهي تعبر غير عابئة بإكراهات الزمن والمسافات، تلك اللحظة التي لا تسعفني الظروف كي أقبض عليها، أو أتملكها، هي ندبة دامية في داخلي. انتظرتها طويلًا ولا زلتُ أنتظر وأنا أخاطب ليل قلبها الطَّويل، في هذا الزمن الظّالم وغير العابئ بمعاناة المقهورين.

نزيم الابن

1

أعوان الشّرطة في حملة مطاردة مسعورة خلف عرباتنا، ما إن يصطادوا واحدًا منّا حتى يصادروا كل ما تحمله عربته بما في ذلك الميزان، لا يلتفتون لرجاء وتوسلات ضحيّتهم ولا يأبهون لدموعه المنهمرة أو للحالة الهستيرية التي أصبح عليها، بعد أن يفرغوا من مهمتهم تلك يمضون خلف عربة أخرى وهكذا تتواصل المطاردات ويستمر الكر والفر بيننا.

لا يتوقفون ولا يرحمون أحدًا منا، عدا عربات بيع الموز فأصحابها لا يدخلون في نطاق الحظر والمصادرة! سمعت من عامر بوذيبة أن مستورد الموز هو مستشار وأخ فخامته، لذلك يحظى بائعو الموز غير الرسميين بغض الطّرف عن نشاطهم التّجاري غير القانوني.

2

بالأمس بدت لي ملامح تلك المرأة التي كانت غارقة في التحديق إليّ بينما كنت أناول الزبائن أكياس الفواكه، غير غريبة عنّي، حيث حاصرتني طاولات الباعة من كل الجهات، وأضجرتني شكاوى الزّبائن، وطاردتني الشّرطة مرارًا وتكرارًا. هذه الليلة أيضًا، بينما كنت ممدَّدًا في فراشي انتابني إحساس جامح بأنّني أعرفها، بحيث لا زالت ملامحها مطبوعة في ذهني، لا أرى إلا إياها! حاولت طوال الليل التّفكير بالأمر، أن أستذكر أين رأيتها. بداخلي فوضى عارمة. تجاوزت السّاعة الثّالثة صباحًا. غفوت. هزّني حلم بقوة. كانت تلك المرأة المجهولة الهوية التي ظهرت لي بالأمس.. أمي. يا إلهي، أيعقل أن تكون أمي؟ لا أرغب في التّفكير بها، مجرّد ذكر اسمها أمامي يقلّب مواجعي.

كانت تحب نفسها بشكل مرضي، دومًا ما تضع مصالحها في المقدمة، أنانيَّتها مفرطة طيلة الوقت.. دومًا ما كانت أمًا فاشلة، كما حدثتني عمتي عنها؛ فلم أتذكّر أيّ موقف أبدت فيه عطفًا تجاهي طيلة الفترة التي عاشتها ببيت والدي. كانت لا تأبه لوجودي، بله لحاجاتي ومطالبي، هي امرأة مستهترة غير مهتمة إلا بنفسها. كانت معاملتها جافة تخلو مطلقًا من أيّ حنان أو عاطفة الأمومة، كانت تتظاهر وتكذب باستمرار ولم تكن امرأة جديرة بالثقة أو بالأمومة إطلاقا! كانت تهوى القفز على الحقائق والمشكلات، كي تهرب من المواجهة، لم أعش معها كما كان يعيش أيّ طفل مع أمّه، بقدر

ما خبرت أمومتها الزّائفة والمشوّهة. فلم أستطع يومًا أن أنظر في عينيها. علاوة على أنَّها كانت تدخن وأنا في الغرفة، امرأة فاسدة الأخلاق لا تأبه لصحتي وكانت طيلة الوقت على أعصابها، دائمة التوتر وسرعان ما تفقد السَّيطرة على نفسها، وإزاء كل خطأ مقصود أو غير مقصود، كانت تؤنبني وتقرعني وتصفعني على خدي من دون تردد أو تضربني بأيّ غرض يقع تحت يديها أو بالقرب منها، من دون أن تتثبَّت. لا أتذكر سوى صوتها وهي تزعق في وجهي، مستشيطة غضبًا ومهتاجة، وبصاقها يتطاير كأنّها مصابة بجنون البقر. فلم أحظ بحياة مثالية كما يتمناها أيّ طفل في سني ولم تكن أمًا صالحةً كما يجب. من قسوتها المبالغ فيها معي، أتساءل في قرارة نفسي: هل هي أمي حقًا؟ ويخطر ببالي في بعض الأحيان جراء ذلك، أنّني قد أكون ربيبها وليس ابنها الذي من دمها ولحمها أو كأنّني خرجت من رحمها بطريق الخطأ، فلم تكن تجمعني بها سوى وثيقة الميلاد! كانت علاقتي بها في كل الأحوال بالغة السوء، لم أتذكّر أنّها سبق واحتضنتني أو ربتت على كتفي أو مسحت على رأسي أو قالت لي نحبّك أو تفوهت بأي كلمة دافئة أخرى. لم تقل لي مرة واحدة أنّها مشتاقة لي، لم تغن لي ولم تحك لي قصص ما قبل النّوم، كانت تصرفاتها تشعرني أنّ وجودي لا لزوم به، كأنّني مجرد شيء غير مرغوب فيه، شيء أقلّ أهمية من قطعة أثاث أو من أي أداة أخرى لها منفعة بالبيت. تخلّت عني وغادرت بيت والدي من دون سابق إنذار ومن غير رجعة. في حين والدي أعاد الزَّواج، ألفيتني أتلاطم من أسرة إلى أخرى. في بداية الأمر وجدتني في رعاية جدتي نوّارة، وبعد وفاتها، تكفلّت عمتي الكبرى صبرينة بالاعتناء بي مع أولادها. مقدار الألم والأذى الذي شعرت به جراء أفعالها وسلوكياتها الجارحة والممعنة في القسوة، لا يمكن وصفه. لم تكن امرأة بما تعنيه الكلمة من معنى ولو ليوم واحد. على مدار السّنوات التي عاشتها معنا، لا أتذكَّر سوى جفائها ودمها البارد وانحرافها. بصراحة، أخجل من أنّها

أمي. سبق ووجدتها على سبيل الصّدفة برفقة ابن الجيران جمال سيغمان تقوم بأمور خادشة للحياء. يؤلمني حتّى مجرّد التّفكير فيها أو تذكر ذلك المشهد المفزع في صالون بيتنا. ما أذكره هو تسمري في مكاني، من هول الصّدمة والمفاجأة، عجزت عن تحريك قدميّ أو الرّحيل، شاهدت تلك اللحظات وهي تتحرش به، لكنّه طاوعها في نهاية المطاف، والخوف والفزع يتملكنني. كان بمثابة أخ كبير لي، كان المشهد فاضحًا ومقززًا ويثير الغثيان، ما هالني هو تلك البذاءات التي سمعتها تتفوه بها بعد أن قضت وطرها، كان الأمر شائنًا وغير لائقٍ مطلقًا! إنها امرأة قبيحة وغريبة الأطوار، وليست سويَّة مطلقًا، وما فعلته ينمُّ عن روحها القذرة، غير الطاهرة. حقيقة أنَّ أَبي كان يكبرها في السن، لا تبرّر لها ما أقدمت عليه. كانت لا تفتأ عن التّباهي أمام جدتي وعماتي بطوابير العرسان الذين تقدموا لخطبتها ورفضتهم. لا تتوقف عن معايرة أبي وسبّ الحظ العاثر الذي أوقعها تحت عصمته، كانت سليطة اللّسان، كثيرة الشكوى، دومًا ساخطة وناقمة ومهتاجة كأنّها مجنونة أو بها مسّ من شيطان رجيم. العيش معها مأساة بأتــمّ معنى الكلمة، من العسير تحمُّل نكدها وغضبها من أتفه الأشياء.

لم أتنفس بعمق وأنام ملء جفوني سوى لحظة مغادرتها بيت والدي إلى وجهة مجهولة. لم أعد ذلك الطّفل الخائف والمتردد والمتوجس والتَّائه والضَّعيف والمنزوي. صرت أكثر جرأة وإقدامًا، وغير مبال بالآخرين وبتّ لا آبه بكلامهم ونصحهم وأوامرهم ونواهيهم. عبرت تلك المرحلة المعتمة من حياتي من غير رجعة، باتجاه كرامتي وحريتي وإنسانيتي، وصرت أنا، ككيان، مستقلا عنهم، عن الجميع ومستغنيا عن دعمهم، منفصلا عن كل شيء يذكرني بطفولتي وما خبرته. ربّما كان ما أقدمت عليه أول خطوة في الاتجاه الصّحيح، بعدما هربت من ذلك الجحيم، تركت كل تلك الذّكريات خلفي، تعلّمت أن اعتمد على نفسي، أن اندمج وأتأقلم مع حياتي

الجديدة. كانت وصمة عار في جبيني، أسفت على كلّ الأيّام التي عشتها برفقتها وعلى تلك الفترات السّيئة والتّعيسة التي أمضيتها معها وعن كلّ ممارساتها غير المسؤولة والخاطئة التي ظلت عالقة في ذاكرتي طوال عمري ولم تمحُها ظروف الحياة الصعبة التي خبرتها فيما بعد. يمكنني أن أقلّب الأمر في رأسي طيلة ساعات، أفكر فيه، علّني أفهم أو أنعم ببعض الراحة، علّ روحي يغمرها السّلام. اليوم لا أعرف شيئًا عن مكانها ولا يهمني أمرها مطلقًا. بتُّ إنسانًا آخر، مختلفًا تمامًا عمَّا كنته.

III

دلال سعيدي مرة أخرى

1

مرّت أكثر من ساعة، قبل أن يقطع صراخ عالٍ ومسعور تلك الحرب الضّروس التي كانت مندلعة بيني وبين أشخاص يتحدثون داخلي. في البداية كانت مجرّد أصوات أسمعها في رأسي، تتحدث عني وكأنّي غير موجودة بينهم، ومع مضيّ الوقت علا ضجيجها وارتفع صخبها وتنامت غرابتها. أضحت مبتذلة ومهينة.

هم يتحدثون توًا، أصبحوا برفقتي بشكل مباشر، ها أنذا أسمع تذمرهم طورًا وانتقاداتهم اللاذعة تارة أخرى، ثم أتلقى منهم أوامر وتعليمات تحرضني على القيام بأفعال شائنة أو عدوانية. أحيانًا أتلقى الأوامر أو أسمع التَّقريع من صوت واحد فقط، وفي أحايين أخرى تظهر أصوات متعدّدة، متداخلة، متناقضة ومتباينة ومتصارعة داخل جمجمة رأسي، لا أكاد أميّزها. وفي أطوار أخرى أتلقى الأوامر على شكل همسات أو مجرّد ضجيج عابر أو حديث جانبي بلا معنى وغير مفهوم.

في داخلي بركان من التّشتت والاضطراب يتعسَّر عليَّ النَّجاة منه. لم يكن أمامي خيار آخر غير البقاء وحيدة متشرّدة في الشّوارع، بلا أيّ ضمان لأيّ طارئ أو أيَّام قادمة. ماذا يعني كلُّ ذلك أمام شعوري بالتَّقدُّم في العمر؟! التَّجاعيد تضاعفت في وجهي، لم أعد أراقبها كلّ يوم كما كنت أفعل بزنقة الطَّليان. اتسع التَّرهل في جسدي، فأنا لست بحالة جيّدة، هُزمت بالضربة القاضية في صراعي مع الحياة والزَّمن. حتَّى مع الظُّهور المفاجئ لعون الأمن المكلَّف بحراسة مبنى

التريزور، لم يسعفني من التخلُّص من تلك الأصوات التي تقبع داخل رأسي. وقف قبالتي وصرخ في وجهي بصوت عالٍ ومسعور:

– «واش قاعدة أديري هنا يا ميكروب، هيا بدلي وجهك من هنا».

تسمّرت في مكاني من دون حركة، كنت متشنّجة، ومرتبكة، وظهري كان ملتصقًا بالجدار على جنب البوابة الرَّئيسية، وتلك الأصوات المتطفّلة لم تتوقف، أرغب في إخراسها، لكن من دون جدوى. كنت عاجزة حتَّى عن النَّظر في عينيه وهما تبثان السُّمَّ وترغيَّان وتزبدان، إنّما أطلقت ساقيَّ للرّيح من دون أن ألوي خلفي.

وجمعٌ من الأطفال خلفي، يتصايحون ويرددون:

– «يا دلال.. يا دلولة.. يا شعر الغولة..

يا دلال.. يا دلولة.. يا المهبولة..

يا دلال.. يا دلولة.. يا وجه القرنونة..

يا دلال.. يا دلولة.. يا الخمورية النتونة..».

أرغب في التَّوقف عن الجري. كنت منهكة وأشدَّ تعبًا من أن أستطيع مواصلة الرّكض طويلًا، عابرة شارعًا لم يسبق وأن مررت به أو ملتفّةً حول منعطفٍ من غير أن أفقه إلى أين سينتهي بي أو داخلة حيًّا لا أعرفه، وسط الأرصفة المكسَّرة، والحفر في الطّريق، والسَّيارات التي لا تخفِّف من سرعتها لـمَّا أعبر. فجأة بدأ صوت رجل يرتفع من الخلف، يناديني باسمي، تجتاحني رغبة لرؤية وجهه. أتوقف برهة، يرتفع الصوت مجددًا، يبدو لي أنَّني أعرف صاحب الصَّوت؛ يا إلهي، صوت جلال الجورناليست كما عهدته يتناهى إليَّ بنقاء وعذوبة. أهمُّ بالالتفات، فأرتطم بالفراغ يحوطني من كل الجهات. يختفي الصَّوت ولا يفارقني الذُّهول والدَّهشة والحيرة. أنظر مرة أخرى يمينًا وشمالًا، ثم خلفي، فلا أرى أحدًا، الزّقاق خال وموحش. لكنَّ في هذه اللحظة تتعالى صرخات الأطفال وأصواتهم، جلبتهم تصدع طبلة أذنيَّ، أحاول أن أهرب، أهمُّ بالركض وهم

يتصايحون ويلحقون من خلفي جريًا. أرفع يديّ وأدسّ أصبعيّ داخل أذنيَّ، لا أقوى على التّـوقف، أرغب بشدَّة في أن ينفضُّوا من حولي وأن أتغلَّب على الصُّداع الذي هشَّم رأسي إلى نصفين. كنت أجري وأصرخ فيهم: «يعطيكم الوباء يوبيكم.. لوبا يوبيكم.. لوبا يوبيكم.. لوبا يوبيكم.. لوبا يوبيكم...».

2

الأيّام متشابهة، رتيبة ومتكررة، تمرّ خلف بعضها بتثاقل مزمن، على وقع خطاي المترنّحة، كأنّ الزّمن تجمّد ولم يعد يتقدّم، أو تُراه بقي يتردّد في الخلف إلى غاية أن حلّ منتصف نهار اليوم، حين شعرت بالجوع يعضّ أحشائي ولم يكن أمامي من منفذ لكسر جوعي، سوى الخروج من وكري بجنب بناية التريزور بحثًا عن طعام. استيقظت اليوم متأخرة، قبل منتصف النهار بقليل وثمة ثقل يضغط على صدري، أعرف أنّه نتيجة ثقل ما كنت أحمله في داخلي ولا أواجهه إلّا بالهروب خشية مواجهة ما ينغّص حياتي وأخشى الاعتراف به.

أمّا الآن، فسوف أبحث عن شيء أطفئ به جوعي، أيّ طعام متاح قد أعثر عليه في مكان ما، لا يهمُّ إن كنت أحبُّه أم لا. أعترف أنّني لا أفعل شيئًا مهمًا سوى التسكّع في هذه المدينة الواسعة، نادرًا ما يشفق النَّاس لحالي، لم يكن في قلوبهم الباردة ذرة رحمة تجاهي وأنا أتسكّع بينهم جائعة، علاوة على أنَّهم نادرًا ما أوقفوا أطفالهم عن مطاردتي أو نهوهم من التّعرّض لي. قلوبهم باردة، وتلك البرودة تسري في عروقهم مجرى الدم وفي أطرافهم كذلك. لا روح فيهم، أجساد خاوية وضائعة كأنّها قفزت من مشاهد مسلسلات الزّومبي. لا ملجأ لي، كنت هائمة ترافقني ذكريات قاحلة، ومشاهد متلاطمة في ذهني. قليلًا ما أشاهد ما يُبهجني، أبحث في عيون النّاس لا أرى من أكثرها سوى التّفاهة والتّسطّح.

لا أريد لفكري أن ينشغل بغير التَّفكير في محاولات النَّجاة من جلبة تلك الأصوات القاتلة، والمتواصلة بشكل مفزع. أخشى من الوقوع فريسة لها، لا أملك مخرجًا. وأنا امرأة مشرَّدة على أبواب الخمسين، أو تجاوزتها بقليل، إنَّني خائفة وقلقة، ومتوجسة، وسأكذب لو قلت إنني شعرت بأنَّني سأنجو من نوبات الهلع أو إنَّني بدأت أعتاد الأمر.

بدأت بالتَّسكُّع غير بعيدٍ عن موقف اسطنبولي، في نهاية الشارع عند مفترق الطُّرق مررت بجنب مقهى الزّقزاق، انعطفت شمالًا ودخلت زنقة، منها عبرت ساحة أليكسيس لومبار، إذَّاك انتبهت إلى أنَّ المقاهي مغلقة على غير العادة والمكان بدا هادئًا على غير سابق عهدي به في مثل هذه السَّاعة واختفت السَّيارات الكثيرة المركونة على جانبي الرّصيف. كانت نظرات بعض المارة على قلّتهم في وسط السّاحة غير بعيد عن إكمالية جورج إسحاق قلقة، متأثرة. كنت أحدّق في أعين المارة القلائل وأنا مستغربة إزاء ذلك. لا يوجد صوت صاخب أو أي شيء يوحي بالحياة، كالضّحكات والهمسات. النّاس مرعوبون من دون ابتسامة مطبوعة على وجوههم. لـمَّا واصلت طريقي حيَّرني الفراغ خلف بناية المسرح، فمن العادة في مثل هذا الوقت، وقت الذَّروة، تكون ساحة پاساصون مكتظة على آخرها بالنّاس وتصدح في أرجائها جلبة الباعة والمارين وأبواق السَّيارات من حين لآخر. حتى رائحة الشوارمة انقطعت لأنَّ أبواب مطعم الوجبات السَّريعة موصدة ومحلَّات الملابس التي يمتلئ بها المكان كانت كلُّها مغلقة أيضًا. الآن السَّاحة وما جاورها يملؤها الفراغ، صامتة وهادئة كأنَّها مهجورة.

واصلت المشي، قابلني مطعم الكوك دور، لأشهر كنت أحظى بين الحين والآخر بصندويتش مجاني من صاحبه، واليوم هو مقفل في وجهي. تجاوزته، وعند نهاية الشارع انعطفت إلى اليمين على زاوية فندق لوريان على امتداد الرّصيف الطّويل الموازي لساحة الكور الذي كان يغصّ بالخلق وهو مكتظ في سائر الأيّام، بالكاد

كنت أستطيع التحرّك فيه. لاحظت الأمر ذاته! ثلاثة أشخاص على أقصى تقدير، رجل بصحبة امرأة وشاب لوحده. أتأمل الرجل والمرأة يتلصّصان عليّ من بعيد وهما يحاولان الهرولة قدر المستطاع لدخول البناية القريبة من القرض الشعبي. كأنّهما يوشوشان ويتهامسان عني عند البوابة، ثمّ يدلفان على عجل. كنت وجهًا لوجه مع الفراغ، عزلاء في عراء الصّمت. لا أريد أن أستمع للصمت الآن.

ثـمّة أشياء لم يسبق لي رؤيتها من ساكنة المدينة، مطلقًا. العابرون يعدُّون على الأصابع، يمرون هرولة فيما يخفون وجوهم خلف كمامات. كان الجميع يتفاداني بازدراء حالما أمرّ بجوارهم؛ ذلك الرّجل حين اكتشف أنّني بقربه، قفز متراجعًا مذعورًا، كأنّني مصابة بالجرب. لم يسبق لي أيضا أن رأيت هذا العدد من العصافير والحمام في وسط ساحة الكور. واصلت التّقدّم رغم الذهول الذي سمّرني. حاولت التّقدم وأنا أضغط على هلعي وحيرتي. تلمست مفاصلي، كأنّها لم تكن مني. وعند ناصية الشّـارع غير بعيد عن ساحة دي ڤاغڤولات، صُعِقْتُ على ما وقع عليه نظري، متاريس الشّرطة تغلق الجزء الشّمالي من الطّريق، لم يسبق كذلك وأن وقفت على ذلك الأمر بهذا المكان. في العادة لم يكن هنا وجود مكثّف للشّرطة أو حواجز أمنية منصوبة، عدا شرطي واحد أو شرطيين يحاولان فك عقدة السير. أين العدد الكبير من السّيارات المكتظة القادمة من جهة الميناء؟ أو الذاهبة إلى نهج عسلة حسين؟ أو إلى ميناء الصّيد؟ أو إلى طريق رصيف الأقواس من جهة بناية البلدية؟ أو الغادية من جهة محطة القطار؟ في العادة تشهد هذه الطرق والأرصفة نشاطًا صاخبًا وحركة دؤوبة لا تكاد تتوقف واكتظاظًا مروريًا خانقًا. كلّما كنت أخطو خطوة إضافية كانت حيرتي تتضاعف من كل هذا الفراغ المهيب والرّهيب.

دفعتني رؤية الفراغ وعالم من الصّمت محيط بي من كل الجهات إلى الشعور بالضّياع. لم يكن ما رأيته حقيقة، كان وهمًا أو توهمًا

مني. يبدو أن تلك الأصوات التي لا تبارحني وشقاوة أولئك الأطفال أثرت عليّ وأدخلتني في فقاعة من الهلاوس والتخيّلات. فأنا أعيش في المدينة وأجوب شوارعها وجاداتها وساحاتها يوميا، لكن هالني ما وقفت عليه الآن. هو أمر غريب وغير معتاد ومحزن فعلًا أن ترى المكان مقفرا بهذا الشكل. كان ما رأيته أمرًا مفزعًا يصعب تصديقه! الأماكن لا تزال هي نفسها لكنّني لم أعد أتعرّف عليها. لم تعد المدينة بامتلائها وضجيجها كسابق عهدها. مشاهد ذكرتني بفترة التسعينيات، في تلك الأيام أيضًا كانت الشّوارع والسّاحات فارغة وغير آمنة، ولا يدري الواحد منا إذا ما غادر بيته بأنه سيرجع إليه أم لا؟ وإن عاد، هل سيعود سالــمًا؟ فترة الإرهاب الأعمى أين كان القتل لا يفرق بين كبير وصغير، بين رجل وامرأة.

عند مدخل الحانة التي على ناصية رصيف شارع الثّورة، ومن خلف زجاج واجهاتها تظهر الطّاولات شاغرة، على غير ما كان مألوفًا، ليس هناك أيّ زبائن أو رواد، عدا عمّال الحانة. أحاول مشاهدة أي شخص يدخل أو يخرج أو يعبر الرّصيف، أو سماع الموسيقى التي اعتدت سماعها فيما مضى وهي تنساب من الحانة. لا جدوى! استنشقت هواء عميقًا بملء رئتيّ ومشيت في اتجاه شارع عسلة حسين، خلفت منعطف الزقاق الأوّل ثمّ منعطف الزّقاق الثّاني، وعند مفترق الطّرق انعطفت يمينًا، عبرت ناصية الشّارع إلى أن ولجت شارع الأمير عبد القادر أو لاري بيجو كما ينطق به ساكنة المدينة هنا. شعرت بمرارة وحزن كبيرين وأثار استغرابي عدد الزّبائن القليل جدًا في بعض المتاجر المفتوحة. كانت هناك متاجر خاوية على عروشها، علاوة على أنّ هناك في بعضها الآخر يتسكّع بين شخص إلى شخصين على أقصى تقدير في كلّ متجر. اختفى الباعة المتجولون. في العادة وفي سائر الأيّام المحلات هنا مملوءة إلى حد الأذنين بالزّبائن. فشارع الأمير عبد القادر كان من أكثر شوارع عنّابة ازدحامًا وزهوًا بالراجلين في الاتجاهين؛ من ساكنة المدينة وبالزوّار من

المدن المجاورة والسيّاح التّونسيين الذين لجأوا إليه هربًا من الغلاء الذي اجتاح المدن التّونسية بعد الثّورة.

أحسست وأنا أتأمل من بعيد مارشي فرانسيس، بما يشبه الأدرينالين يسري في كامل جسمي وأنا أرى للمرّة الأولى أرضية الأرصفة وإسفلت الطّرقات والشّوارع، تتراءى أمام ناظري بوضوح كما لم أشاهدها من قبل، فقد كانت تحجبها الأعداد الغفيرة من النّاس وهم كالنّمل يحتلون كلّ فضاء تصل إليه أقدامهم ولا يتركون بقعة فارغة. إنّها فارغة كأنّها خارجة من زمن آخر. بدأت أشعر بالقلق، وشيئًا فشيئًا يفترسني الحزن والاكتئاب من هذه الأماكن التي أُضحت خاوية على عروشها، يبدو أن هذه الأمكنة ليست فارغة بل أُفرغت. كلّ شيء هادئ، حتّى باعة السَّـمك ابتلعهم الصّـمت، والوقت يمتد بخطى حلزون عنيد كما في روايات رشيد بوجدرة. كلّ شيء من حولي فوضى، حتّى الأصوات التي كانت تأتيني توقفت. ليتها لم تتوقف أمام هذا الصّمت المخيّم على المدينة كوحش أسطوري يفتك بها. لست أدرى إن كانت ستمضي هذه الأمسية كما مضت سابقاتها التي لا تشبهها مطلقًا؟ هل ستشرق في الغد شمس يوم جديد؟ ماذا لو استمرت المدينة فارغة طيلة أشهر؟ ما مصيري إزاء ذلك؟ أرى أنَّ كل شيء غامض وغير مضمون أو متيقن منه. لطالما كانت شوارع المدينة تعاني الزحمة والكثافة، على ما في ذلك الازدحام من خواء، وكثافة الناس لم تكن دومًا مرادفًا للحياة. ومع ذلك الأمر، كانت الحياة أهون عليَّ مليون مرة من هذه اللَّحظات العصيبة التي لم يسبق مطلقًا وأن خبرتها في حياتي؛ فالفراغ كشف عن الوجه البشع والمخيف لشوارع وساحات وأزقَّة المدينة.

الشّوارع اليوم غير عادية تمامًا، الحركة تكاد تكون منعدمة. وأنا وحدي ولا شيء حولي سوى الأشباح غير المرئية تتجوّل في شوارع وساحات وبين بنايات وسط المدينة، يكاد لا يظهر لي جنس بشر. اختفت أصوات السّيارات الصّغيرة وسيارات الأجرة الصّفراء وكذلك

الحافلات الزّرقاء التّابعة للدولة المخصصة للنقل الجماعي، فقط تمرّ بين الحين والآخر سيارة إسعاف أو سيارة شرطة. حتّى جلبة العراك الذي كان ينشب أحيانا بين بعض البائعين والمشترين أو بين فتيان يعاكسون فتيات أو جراء اصطدام بين سيارتين لم يراع أحد السائقين احترام مسافة الأمان، أو مطاردات الشّرطة للباعة أصحاب الطاولات، كل تلك اختفت. أيضًا جلبة صراخ الأطفال وتوسّلات المتسولين على أبواب الجوامع وتضرعاتهم والفوضى التي كان يسببها فضول النّاس لــمّا يحتشدون لرؤية خناقة أو حادث ما، تلاشت. كما تلاشت الموسيقى التي كانت تصدح من أبواب المتاجر ونوافذ السيارات ومن نوافذ وشرفات البيوت.

المطاعم والمقاهي مقفلة. حركة المشاة تلاشت في العدم، أنا جائعة وخائفة، منذ جبت الشّوارع لم أر أحدًا على طبيعته، أعتقد أنّني خائفة أكثر مما ينبغي، صمت مطبق كان يرين على الأمكنة، امتص كل شيء، النّـاس والسّـيارات... رغم أنّ بناية التريزور حيث أبيت أكثر أمانًا، لكن أخرجني الجوع من جحري. لست مهيأة ولست مستعدة للثقل الذي بدأ يسيطر علي! فكلما أعبر شارعًا جديدًا كانت تنتابني مشاعر غريبة، ليس أمامي من ملجأ آخر للهروب من هذا الخوف ومن الانتظار الطّويل لنهاية لا أعرف شكلها ولا زمنها. في البداية وفي عزّ الذّهول، قفز إلى ذهني انطباع كأنّها القيامة، لكنّني سرعان ما تخلّيت عنه، فالوقت لا يتحمّل المزيد من الرّعب والهوس. أعلم أنّ لعنة أصابتني، قدّر لي أن أعيش مشوّهة من الدّاخل، قليلًا ما لم تواجهني الاضطرابات والأزمات الحادة، ونادرًا ما عشت شيئًا اسمه السَّـعادة، كنت أفشل ككلّ مرّة إذ تخونني الظّروف. لم تنصفني الأقدار، كانت شديدة القسوة معي. كنت أفكر في كيف أقف أمام الله قبل قيام الساعة!؟ لا أحد هنا، لماذا أحاسب لوحدي؟ أنا لم أطلب من أمي أن تلدني وترمني للأقدار هكذا بضعفي وقلّة حيلتي، ولم أطلب من أبي تزويجي بعبد العزيز سالمي، ولم تكن لي يد في

اختيار مصيري حين تركوني لأموت مشرّدة ووحيدة في الشّارع! هل الصّمت والفراغ من حولي جعلاني أصاب بالجنون والشّك واللايقين؟ كنت أكلّم نفسي ولا تكلّمني. فكرت طويلًا بكلّ الحماقات التي ارتكبتها. حقيقة أخطأت كثيرا.. لا أنكر. كل ابن ادم خطاء. لكن لست نادمة، لأنّه ليس لديّ يد في كل ما حدث لي. فشلت في كل شيء. حتّى في حبّ جلال الجورناليست. تزوجت وأنجبت، لكن ضاع كلّ شيء سدى. عادة ما كنت أحلم بجلال في وضح النهار. أحلم وأنا برفقته استمتع بتأمل ضوء القمر المكتمل، حيث يتلاشى الظّلام لسطوعه ونوره الطاغي فوق أسطح البنايات القديمة في لابلاص دارم، أين كنت أتلصص عليه وهو يعطي الحمام خبزًا يابسًا. حياتي توقفت في تلك اللّحظة التي خرجت فيها من زنقة الطّليان هائمة على وجهي. لم أعد بعدها أحلم. أعرف أنّه ليس لي أيّ مستقبل. لن يبدأ بعد سن الخمسين أو السّتين. لم أعد آبه بغسل يدي. ولا بفرش أسناني.. أردت أن أكون كلّ شيء وها أنا الآن لا شيء.

كلّما كنت أقطع شارعًا أو أعبر جادة أو أقف أمام بناية أسترجع بعض أنفاسي، أقف وحيدة في مواجهة هذا المشهد، لا رفيق لي سوى دقات قلبي المرتجفة وقرقرة أحشائي. جلست على الأرض مرمية في الشّارع أقلّب الصوّر في ذهني، تستمر المتاهة ذاتها الشبيهة بالهلوسات. عقلي لا يستطيع احتمال الفراغ المطلق الذي شلّ يوميات المدينة، والصّمت المطبق، والسكون الذي ظهر فجأة حيث كان كلّ شيء في الأيّام الماضية حيًّا ومفعمًا بالنّشاط. بقيت مشدوهة فاغرة الفاه، استرجعت كل أفلام وسيناريوهات الرّعب التي سبق وشاهدتها، في حين أنّ منسوب الرّعب الذي ولّده في داخلي هذا الفراغ الرهيب، والهلع الذي بثّه في نفسي تجاوز كلّ خيّال. من استطاع إطفاء وهج المدينة وتحريرها من روّادها بإخلاء شوارعها وتكنيس سكانها بهذا الشكل المفزع؟ كأنّ الجميع محبوسون في سجن كبير والزّمن معطّل أو يرجّح أنّه في حالة شلل كامل! كلّ شيء

أصبح بعيدًا وغامضًا وغير قابل للتصديق وللإدراك في الوقت عينه. هل هناك من محى تفاصيل ويوميات المدينة المعتادة؟ أو هناك قوَّة غير مرئية عطَّلت الحركة على الأرض؟ لا يمكنني معرفة أو فهم هذه الأشياء التي أراها بأمّ عينيَّ ماثلةً أمامي، أو لا أراها. وهنا بالذات يكمن الشعور بالعجز الذي أحسُّ به الآن حينما أنظر إلى الشوارع الخاوية، أشعر أيضًا بأنَّ وجودي يتأرجح، في حين أن المجهول وعدم الأمان يتربصان بي. أشعر أنَّ نهاري قد انتهى من شدّة الذُّعر. نسيت جوعي، لا أجد الطّاقة والقدرة على الاستمرار في التَّفكير.

هناك صوت ما في داخلي يردّد إنَّها نهاية العالم غير العادل كما خبرته طيلة السّنين التي عشتها. يا إلهي يخاطبني ذلك الصَّوت عن علامات السَّاعة الكبرى، كلُّها تشبه علامات نهاية الكون. يقول إنَّه عقاب من الله وأنَّ ما أراه الآن هو قطعة من الجحيم! أو أنَّ المدينة قد سقطت في يد العمَّال الصينيين الذين تمتلئ بهم ورش البناء وأرصفة الشَّوارع، هيمنوا على الأخضر واليابس. يأكلون القطط والكلاب والخفافيش والحشرات والدّيدان. تبًا لهم. ملاعين. أو أنَّ هناك عدوًّا آخر، فتاكًا وخارقًا، اجتاح المدينة، تسلَّل إلى كلّ مفاصلها، تجده في كلّ مكان ولا تكاد تراه. جاء ينتقم من شيء قابع في أعماق النَّاس؛ شيء على قدر كبير من البشاعة والقذارة. تُرى أنَّه السبب في اختفاء الناس من الشَّوارع، واحدًا تلو الآخر، حتَّى أولئك الذين اعتدت رؤيتهم ومن لا أعرفهم أيضًا؟ يبدو أنَّه عدوٌّ لا يفرّق بين أحد ولا يُرى بالعين المجرّدة. لكنَّني كنت أشعر به وهو يتعقَّبُني كالظّل. كيف استطاع هذا العدوُّ التَّافه تدمير حياة النَّاس، هل هي قوَّته أم هشاشتهم؟ داهمهم هذا النَّذل على حين غرَّة، عندما لم يكونوا مستعدين له، فحطَّمهم. ولكن كيف يكونون مستعدين له، كيف يكونون مستعدين للمجهول؟ واحدة من أقذر الأشياء التي صنعها العدوُّ، أنَّه أفقدني اليقين تجاه كلّ شيء، حياتي، مستقبلي، وأيضًا، عدم اليقين بإمكانية استعادة الحياة الطبيعية مرة أخرى في

المدينة. إذّاك، وبينما كنت منغمسةً في ذلك الصوت وهو يتحدَّث داخل رأسي، مستسلمة للفراغ، مستغرقة في التفكير، شقَّ فجأة صوت صراخ غفلتي تلك.

لبرهة أصخت السَّمع، ارتفع ذلك الصَّوت مكسّرًا الصّمت المخيّم على المكان. مشيت لخطوات وانعطفت إلى اليسار، وجدتني في جادة قمبيطة، تجاوزت المحلّات المغلقة على شمالي وبناية بنك الجزائر على يميني، قابلتني أكشاك ساحة الكور مجددًا، وتأملت من تلك المسافة البنايات المقابلة من الجهة الأخرى. فجأة تنبّهت لعجوز بدينة ومنحنية الظهر بعض الشيء، بشرتها بيضاء، واقفة جهة الأقواس، وهي ترغي وتزبد وترفع وتخفض يديها باضطراب بالغ.

أسرعت الخطو. حاولت أن أقطع الطريق وأقترب أكثر على امتداد أرصفة الأقواس غير بعيد عن الموضع الذي كانت تقف فيه. لحظة اقتربت، شاهدتها وقد تملّكها الغضب بشكل هستيري، وفي عينيها نظرة لم يسبق وأن رأيتها. وبدلًا من أن أبتعد دنوت منها. واصلت الاقتراب أكثر. وفي تلك اللّحظة انتبهت لثلاثة عمال صينيين واجمين أمامها. اقترب منها أحدهم، كان يشبه الصيني الذي بعته القط مينوش قبل فترة طويلة في ورشة فندق بلازا، كأنّه حبّة فول وانقصمت إلى نصفين! عندما وقف قُبالتها، وتقابلَا وجهًا لوجهٍ على مسافة أبعد من نصف متر بقليل، كان خائفًا وصامتًا كأنّه مرعوب وغاضب في الوقت ذاته، وفي عينيه اللتين اشتبكتا بعيني العجوز شيء من الضعف. كنت واقفة أراهما الاثنين بوضوح، في حين أنهما كانا على بعد خطوات مني فقط، إذّاك صرخت العجوز في وجهه بكل ما أسعفها صوتها: «يا كورونا.. يا كورونا.. يا كورونا.». لم يتحرَّك الصيني من مكانه ولم ينطق ببنت شفة. غادرت العجوز في حال سبيلها، أما رفيقاه فقد امتصَّهما الصمت كأنَّهما ذابا في الفراغ المخيّم على المكان. بينما هو لا زال واقفًا وساكنًا بلا حراك. ثمَّ تشنَّج وجهه وتكدرت نظراته وبدأ ظهره يتقوَّس أكثر فأكثر وكتفاه تنخفضان

وعنقه ورأسه يغوصان بجسمه الهزيل بشكل أعمق فأعمق. وبدأ جسمه يتكوَّر أكثر فأكثر ولم أفهم من كلماته الصّينية التي كان ينطق بها ببطء، أو من أنينه المتصاعد الذي بالكاد كنت أسمعه أيّ شيء. إلى أن اتخذ جسمه شكلًا أكثر قربًا إلى شكل قط سمين، شعر جلده بنّي ورمادي اللَّون وعيناه خضراوان. يا إلهي يبدو لي أشبه بمينوش! عدا أنه أضخم منه بعض الشيء. انسحب هاربًا من تحت الأقواس كالمفزوع وبقيت أتأمله من بعيد وهو يتضاءل ويتضاءل إلى أن اختفى عن ناظريَّ. تراجعت إلى الخلف خطوات متفاجئة ومحتارة، لم أعرف إن كان ما أراه حقيقة أم أنَّها مجرد هلاوس وتخيُّلات أو أحلام يقظة مأتاها الأصوات المضطربة التي تتحدَّث داخل رأسي، هل ممكن أنَّ ما رأيته كان حقيقة!؟

كُتبت في عنَّابة خلال الفترة (2018-2020).

أنـجـز طبعــه على مطابــع

- باتنـــة - chihab print –

أنـجـز طبعــه على مطابــع

- باتنـــة - chihab print –